أرواح معطوبة

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

الكتاب: أرواح معطوبة

- **المؤلف: مجدولين يوسف**
- **نوع العمل: رواية**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2020 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- **رقم الإيداع : 2018 / 1685**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6754-91-1**
- الغلاف: فريق ببلومانيا
- تنسيق وإخراج: فريق ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
  عنوان (2): 38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

أرواح معطوبة

رواية

مجدولين يوسف

www.bbibliomania.com

2020

أرواح معطوبة
لـ "مجدولين يوسف"
تصميم الغلاف
محمد حسين القرعان

"أرواح معطوبة"

ليست مُجرد حكاية؛

إنّها الرّماد المُتبقي من احتراق قلب..

أرواح معطوبة

للكاتبة: مجدولين صالح يوسف

شكر خاص لكلّ مَن ساهم في نجاح هذا العمل، سواء من تشجيع أو تصميم وتدقيق ومراجعة، وأخصّ بالشكر:

محمد مشبال **تبارك حسن القرعان**

فاطمة يوسف حسين

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أيّ جزء من هذا الكتاب، سواء ورقيًا أو إلكترونيًا، أو نقله بأيّ شكلٍ من الأشكال إلّا بأخذ إذن

الإهداء:

إلى بؤبؤي عينيّ...
والديّ حفظهما الله...
صالح يوسف وفاطمة يوسف
وإليكِ أنتِ... أيّتها الرّوح القارئة لهاتهِ الكلمات،
أينما كُنتِ، وكيفما كُنتِ، معافاةً أو جريحةً،
ساكنةً أو ثائرةً! ضحوكة كعينيّ "عمّار"،
وجميلة كشامتيّ عنقه، أو حزينة مثل "مجد"،
ثملةً بالعشقِ كما قلبها! هُنا بين هذه السّطور
ستجلسين قَبالة "مَجد" وتشاركينها البُكاء،
وتشتاقين عمّار، وتفرحين لرؤيته، وتحزنين إذا
ما طوّاهُ الغياب أشهرًا وأسابيعًا، وتقفين أمام
حُطام البيوت وحُطام القلوب.. لا تجدين لأسئلة
"مجد" جوابًا. ستركضين مع الرّاكضين في
الشّوارع هربًا، والسّماء تُمطرُ فوقهم موتًا في
مدينة الرّقة السّوريّة الّتي لم ترَ مُقارنةً
بمحافظاتٍ سوريّة أُخرى من الأهوال إلّا القليل.
هُنا ستجدين أجسادًا كاملةً معافاة؛ لكنّها
بقلوبٍ مكسورةٍ، وذاكرة سوداء وأرواح معطوبة.

الفصل الأوّل

أمّا أنا.. فحكايتي حكاية حُبّ عُلق وقت تفتحه الأوّل على مشانق الحرب، حُكِم عليه ظلمًا - وهو طفل- بالموت رميًا، ب "لا"، وبالمسافات والخلافات الواقعة في ظلّ أزمة بلادٍ حلّت عليها كلّ اللعنات الّتي عرفتها الإنسانية. لم يُبصرْ من جمال الدّنيا وبهجتها إلّا جسدين لعاشقين يافعين يتهامسان بالنّجوى والهوى في ظلّ جدارٍ على أحد الأسطح والقمر وأنجمه يحرسون المكان خشيةَ مداهمته من قِبل أحد الآباء. لم يسمع من جميل الموسيقى وعذبها سوى صوتي وأنا أنطق بملء قلبي اسم "عمّار" فتقف كلّ نقطة دمٍ في شراييني وتُنصت بخشوع. لم يقرأ من دواوين الشّعر وقصص المُحبين وكتب الغرام حرفًا؛ لكنّه قرأ كلّ هذا في عيني "عمّار" وهي تتأمل وجهي الذّابل لمّا التقينا ذات جنونٍ في المقبرة. ورأى من بشاعتها فيضًا من الدّمار والدّموع والدّم.

طق طق طق..

أجل؛ بدأت قصتي من الطّق طق!

في صبيحة ذاكَ اليوم الّذي دقَّ به أبي باب جارتنا يستنجدُ بها لتُعلّمَني كيف أُشغّل الغسّالة، هُنا بدأت قصتي! كان الوضع مأساويًّا، وكان أبي مُحرَجًا! وكنتُ أنا أشدّ حرجًا منه.. كيفَ لا؟! وأكثر مَن هُنّ في مثل عمري تزوجنّ، ففي مدينتي لا تزال عادة تزويج البنت مبكرًا سائدة وبقوّة. حتى أن بعضهنّ صرنَّ أمهات وأنا لا أعرف كيف أُشغّل الغسّالة ولا كيف أستخدم المكواة والفرن، لا كيفَ أُرحّب بضيفة تزورني، ولا كيف أفضّ شجارًا ينشب بين أُختيَّ في هدوءٍ دون أن أغضبَ وأبكي وأَزيد الطّين بلّة! لا أفهم كيف كانَتْ والدتي تُسيطر على الوضع وتفض الشّجار في نظرةٍ من عينيّها! عشرات المرات وقفتُ أمام المرآة محاولةً إتقان نظرة التّهديد الّتي كانت توجهها إليّنا وكُنا نخافها ونحسبُ لها ألف حسابٍ؛ ولكن دون جدوى. لم تكنْ وفاتها -رحمها الله- مجرد صدمة نستطيع مُعايشتها، أو أيام عصيبة نتجاوزها مع مرور الزّمن؛ ولكنّها كارثة حلّت بنا..!

من غرفة العمليات في "مستشفى الشِّفاء" انتقلَتْ ومولودها إلى رحمته تعالى، ذلك المولود الذّكر، الّذي

كان أبي ينتظرهُ بفارغ الصّبر وبلهفة مَن لم يُرزق بأيّ مولود من قبل، ليحملَ اسمه ويُكنى به ويكون لنا سندًا بعد الله وبعده، غير أنّ ذاك الذّكر المُنتظر لم يحمل اسمه؛ بل حمل روح زوجته الحبيبة ورحلَ بها ليظلَّ أبي وحيدًا مُنكسرًا مع ثلاث بناتٍ في بيتٍ صار موحشًا، باردًا، فارغًا من كلّ شيءٍ إلّا من الحزن والكآبة، وغدَا كالحظيرة اتساخًا وإهمالًا.

كنتُ آنذاك في ربيعي الرّابع عشر عندما انقضى أسبوع العزاء ورحلنَّ العمّات والخالات الى بيوتهنَّ وعوائلهنَّ، لأجد نفسي ربّة منزل مسؤولة عن طفلتين دون العاشرة وأبٍ كان على حافة الانهيار لشدّة حزنه، ومنزلٍ لا أعرف من أعماله شيئًا سوى ترتيب غرفتي وإعداد القهوة وسلق البيض، هذا ما كنتُ أعرفهُ وكانَ دلال أُمّي لي قد أفسدني.

نبشنا -أبي وأنا- البيت كلّه ولم نجد فردة حذاءه، ونبشنا خزانتهُ كلّها ولم نجد لهُ قميصًا ليلبسه وكلّ قمصانه كانوا قد أقاموا في سلّة الغسيل داخل الحمّام مع الكثير من ملابسنا. شعرتُ عندها أنّني لا أنفع وجلستُ القرفصاء عند باب الحمّام ودفنتُ رأسي بين ذراعيَّ وانهرتُ باكية، و"حنين" و"وتين" كانتا واقفتين على مقربة مني فبكتا لبُكائي، جلستا بقربي،

وكان منظرنا يُقطّع القلب ويُبكي حتى الأعداء، كما وصفهُ أبي لعمتي في حديثٍ لهما.

رقَّ قلبه وأشفق علينا -وإنه رجلٌ حنون- فجلس بقربي وأخرج وجهي بيده بحنانٍ وقبّلني من جبيني، والابتسامة الزّائفة ترتسمُ على شفتيه تفضح زيفها دمعة واقفة على حافة عينه، قائلًا: لا تبكي صغيرتي، ليسَ هُناك من مشكلة!

تناول قميصًا من السلّة وواصل كلامه: هذا نظيفًا، لا يشكي من شيء، سأضع عليه قليلًا من العطر لتزولَ الرّائحة وينتهي الأمر، وسأبدأ بالبحث عن خادمة."
قالت له عمتي أنّه والبيت ونحن بحاجة لِمرأة ترعانا، واقترحَت عليه بعض العرائس، لكنّه أجابها أنّه لا يُفكر، ولن يُفكر بالموضوع قبل أن نكبر ويزوّجنا ثلاثتنا ورفضَ أيّ نقاش في الموضوع..!

كانت أم عمّار صديقة أمي المقرّبة وجارتها المُفضلة، فلمّا طلبَ منها تعليمي الغسيل جاءت المرأة الطّيبة من فورها إلينا وقد هالها ما رأته من حالنا، وحال البيت الّذي لم تره إلّا نظيفًا مُرتبًا! بكَتْ لمّا احتضنتنا وبكينا معها، ولم تكُ تجف لنا دمعة في تلك الأيام القاحلة الّتي لم تنبت فيها ولا حتى بذرة سرور واحدة داخل أعماقنا. ثمّ قامت وشمّرت عن ساعديها وبدأت بالتّعزيل والتّنظيف وأنا أمشي خلفها كظلّها أيّنما راحت

وأطيعُ كلّ ما تقوله لي، مُصغيةً إليّها بكلّ جوارحي وهي تشرح لي كلّ ما تقوم به. وفي الحقيقة؛ لم أكن أعرف أن الأمر بهذه الصّعوبة، معقّدًا ومُتعِبًا لهذا الحدّ.

ولمّا كان من المستحيل أن أتعلّمَ كلّ شيءٍ في يومٍ واحدٍ.. ولمّا لم يكن واردًا أن تأتي جارتنا كلّ يوم وتقوم بأعمال بيتنا، اقترحَتْ -جزاها الله خيرًا- على أبي أن يسمح لي بالذّهاب إليّها كلّ يوم ساعة فتعلّمني في بيتها ما أحتاج لتعلّمه إضافةً إلى الطّبخ.

رحبَ والدي بالفكرة وشكرَهَا جزيل الشّكر، وصرتُ كلّ يومٍ أصطحبُ أختاي عند السّاعة التّاسعة ونذهب إليهم. كانت تعدّ لنا أكلات شهيّة وحلويات وتُطعم "وتين" بيدها، وتُمشطُ شعر "حنين" الطّويل، تقص أظافرهنَّ، وتُخيطُ للدمى الخاصة بهنّ أجمل الثّياب، كانت تُرددُ دومًا أنّها لطالما حلمت بأن تكون لها بنتًا؛ ولكن شاء الله ألّا يكون لها إلّا ولدًا، لا قبله ولا بعده. وذلكَ بعد علاجٍ طويل ومُكثّفٍ كادَ يفتكُ برحمِها. كانت تحمد الله وتضيف بإيمانٍ: لا اعتراض على حكم الله.

وهكذا كنا نملأ فراغ قلبها كما راحت هي تُغذي نفوسنا بالحُبّ والانشراح، وتمدّنا بجرعات حنان تقوينا لنتجاوز محنتنا بثباتٍ. كان لها دورًا عظيماً جدًّا في حياتي، ففي فترة ضياعي كانت هي اليد الملائكيّة الّتي

قادتني إلى الدّرب الصّحيح، وفي أيام عثراتي كانَتْ هي مَن تُساعدني على النّهوض، فكانت أمًا لقلبي وصديقةً لي. وهكذا ولِكثرة زياراتنا وتواجدي اليوميّ في بيتهم بدأت تظهر على وجهي ووجه "عمّار" أُوّلى علامات الإعجاب. "عمّار".. ذاك الشّاب الأبيض البشرة، الأدعج العينين، ذو الطّول المتوسط والقد الجميل، الحامل لشامتين تزينان عنقه من جهة اليمين، ذو الثامن عشر ربيعًا.

لقد كان يُحضّر آنذاك لامتحانات الشّهادة الثانويّة، ولم يأبه والداه كون تلك الأشهر الأربعة عبارة عن عطلة صيفيّة؛ بل حاصراه بالكتب والمراجع والمُدرّسين الخصوصيين من كلّ جانب، آملين بأن يحظى بمجموعٍ يُولجهُ كليّة الطّب أو الهندسة. كنتُ أراه كُلّ يوم وهو ينهض من سريره بكسلٍ ويكاد يصطدم بالحائط عند دخوله الحمّام -أعزّكم الله- فيفطر ويمازح أختاي قليلًا ثمّ يحضر كتابًا ويجلس في الصالون ويدرس، وكانت خالتي مُتعجبة، إذ أنه لم يكن يستطيع التّركيز إلا في غرفته بعد أن يُغلق النافذة والباب ليحصل على جوٍ هادئٍ؛ ولكن نظراته لي وابتساماته ذات المعنى وشعوره بالعطش ومجيئه إلى المطبخ كلما رأني لوحدي، وخوضه لحديثٍ ما معي، وبحلقته في عيوني بتلك النّظرة المجنونة الّتي كانت تُربكني فتحمرُّ بسببها

وجنتاي.. تغيّر عاداته الغريب ذاك، كان يونبئني بسرٍ يُخفي خلفه حُبًّا جمًا.

لطالما أعجبني اهتمامهُ بي، وكان ذاك الشّعور الجميل الذي غزا قلبي فملأهُ نورًا، أشبه بطاقة فرجٍ فُتحت أمامي لتُخرجني من حزني على والدتي وتُدخلني عالمًا ورديًا لم أعهده من قبل. وهكذا حتى وقعت في حبّه، غدا محور حياتي الّذي تدورُ حوله أيامي واهتماماتي وأهلي وكلّ ما يحتويه عالمي الصّغير.

ومرّت الأيام مُسرعةً..

وأتى شهر آذار، عام 2011 ليشتعل فتيل الحرب "السّوريّة السّورية" الّتي صارت فيما بعد "السّورية والعالم أجمع" لتُدمرَ بلدًا، وتُشردَ شعبًا وتقضي على جيلٍ، وتُحطمَ أحلامًا، وتُجوّعَ، وتُيتيمَ وتُرمّل وتفرّقَ.

وأكثر ما قد يثيرُ الغيظَ أن يأتيكَ جاهلًا ويُسمي ما يجري في البلدان العربيّة ب"الرّبيع العربي" متى صارت الحرب والموت والدّمار ربيعًا؟! وما الرّبيع إلّا رمزًا للسلام فكيف نُسمي أمّ الدّماء ربيعًا؟!

كنت آنذاك قد دخلتُ عامي السّادس عشر وكان "عمّار" قد وصلَ السّنة الثّانية من الجامعة، وكُنا قد اتفقنا على أن نتزوّجَ بعد أن يتخرّج ويتوظف ويدخل

سلك التّدريس. فهوَ لم يُفلحْ بمحاولاته لدراسة الطّب، فراحَ يُدرسُ الرّياضيات، وككلّ العشاق السّذّج تعاهدنا على الحُبّ الأبديّ، على الإخلاص، على أن نُسعدَ بعضنا البعض، اتفقنا أن نُنجبَ ستة أطفال واتفقنا على أسماء كُلّ منهم، اخترنا الحيّ الّذي سنشتري شقّة به واتفقنا على المزرعة الّتي سنشتري بها أرضًا ونبني بها بيتًا نقضي به الصّيف بأكمله، اختلفنا على مَن يُحبّ الثّاني أكثر، أنا أم هوَ، واتفقنا أنّه أكثر وأنّي أكثر! كُلّ هذا وأنا وهوَ مُلتصقان بالحائطِ، فوق سطح البيتين المُشترك، حيث الليل يلفنا بوشاحٍ من الظّلام. نتهامسُ بالأحلام والهيام ونُحلقُ بأجنحةَ الحُبّ إلى عوالم السّعادة الوهميّة، ونُخطط ونتفق في تلك اللحظات الحميميّة المسروقة. كان كُلّ شيء يسيرعلى ما يُرام، بالنّسبة لي على الأقل! أمّا بالنّسبةِ للبلاد فكانَتْ تنحدرُ جمعة بعد جمعة نحوَ الهاويّة. انقسمَ الشّعب بين مؤيدٍ للنظام الحاكم ومُعارضٍ له، والجدال العقيم حول هذا الموضوع سكنَ كلّ الأمكنة، جالس القهوة، الدّكان، الشارع والمأتم والعرس والمدرسة والحدائق والمستشفيات، وقت الغداء والعشاء، جالس الأيام، فأصبحنا نسمعه كلّ يومٍ، كُلّ يوم..

كنت أشعر أن الشّعب سوف يجنّ أو أنه قد جُنَّ فعلًا، ولحسن حظنا أنّ داخل منزلنا لم يكن هُناكَ مَن يجادل أبي المؤيد حتى النّخاع ويُعارضهُ في قناعاته، وبذلك

كان يسود بيتنا بعض الهدوء مُقارنةً ببيوتٍ كثيرة نعرفها، لم يعدْ أهلها يستطيعون الجلوس سويةً تحت سقفٍ واحدٍ لهذا السّبب..!

كان "عمّار" كأيّ شابٍ طائشٍ يفتقرُ إلى الهدوء والتّروي، ينجرفُ سريعًا مع أيّ تيارٍ. وقد انجرفَ كأكثر الشّباب مع ما أسموه ب "ثورة الكرامة"..

فصارت مواعيدنا الغرامية حينًا اتجاهًا معاكسًا، وأكثر الأحيان نشرات أخبار يَسردُ من خلالها على مسامعي آخر المستجدّات ويغضبُ عندما أقول له: لا يهمني كُلّ هذا وإنّها أحاديث رجال لا شأن لي بها، ومن ثمّ أكره السّياسة ونشرات الأخبار!

وكم كانَ يقلقني فَوران دمّهِ وتراجعه في دراستهِ، وموقفه الّذي كنتُ أراهُ يومًا بعد يوم يتحوّل من القول إلى الفعل. راح يخرج في المظاهرات؛ بل وأكثر من ذلك كان يخرج هو وأصحابه ليلًا إلى حيث لا أدري فلم يكن يخبرني إلا بالشّيء القليل، وقد لجأوا للعمل السريّ ريثما يحين وقت حمل السّلاح والفعل. كنتُ أراهُ ينضجُ يومًا بعد يوم، ومُظاهرة بعد مُظاهرة، وكلّ ساعة أزدادُ تعلقًا بهِ وخوفًا عليه، خوفًا على مستقبلي وما مستقبلي إلّا هو! حتى ذلك اليوم الذي سمعنا به صوت خالتي (أمّ عمّار) تولول وتصيح باسمهِ وهي تلطمُ وجهها وتُخمّشُ خديّها! جُننتُ.. ركضتُ إليّها وأنا

مرتدية أبرون المطبخ وحاملةً في يدي غطاء الطّنجرة، غير منتبهة لوجود أبي الجالس في الصّالون، وقد أثار حينها منظري الشّكوك في صدره.

شقيّتُ لنفسي طريقًا في وسطِ الزّحام، جثوت قربها وأنا أرتجف..

ـ خالتي ماذا حدث؟ سألتها.

ردّت مُنتحبةً:

ـ اعتقلوهُ يا مجد..!

الفصل الثّاني

ثلاثة أشهر وخمسة أيّام مرّت..

لم نعرفْ بها عن الحبيب المفقود خبرًا، لا لأين أخذوه، ولا ما مصيره عندهم؟! قال البعض مُطمئنًا ذويّه: لا تقلقوا سيطلقون سراحه بعد أن يعطوه درسًا في "بيت خالته" وفي أسوأ الأحوال سيُلحقونه بالخدمة العسكريّة. بينما خالفَهُم آخرون الرّأي، وقالوا: قد يلصقون به تهمًا أُخرى غير إثارة الشّغب ويحاكمونه محاكمة الخائن لبلاده، وقد يحكمون عليه بالسّجن المؤبد، وعزَّ عليهم أن يقولوا يعدمونه.

مَن يدري..! ففي ظلّ هذه الأزمة ليس شيئًا غريبًا أن يُعدمَ رجلٌ لمجرد خروجه في مظاهرةٍ تُطالب بإسقاط النّظام الحاكم، أو أن يُقطع رأس شاب في بداية عمره وعنفوان شبابه ويُمثل بجثته فقط لكونه يُقاتل على جبهات الجيش السّوري. وقد رأينا في ظلّ هذه الأزمة

العجائب.. كانت تُعلّقُ رؤوس البشر على القضبان في السّاحات للفرجة ويلتقط المرضى النّفسيين لها ولأنفسهم بجوارها صورًا.

أمّا عمّن ينويّ السّفر لمُحافظةٍ أخرى، فقد كان يُصلّي صلاة الخوف ويودّع أهله وداع محتضرٍ، فكلّ محافظة تخضع لجماعة مختلفة، وكلّ جماعة تُجسدها راية معينة. أخان، ابنا بطنٍ واحدة، كُلٌّ يُقسم إن رأى الآخر ليقتلنّه! لماذا؟! بكلّ بساطةٍ، لأنّه يخالفهُ في قناعاتِهِ. جيلٌ أُمّيٌ لا يعرف كيف يكتب اسمهُ، وكيف يستدلُ على دربه، عقله محشوّ بالأفكار والمفاهيم الخاطئة. أسيادٌ كانوا مقصدًا للمحتاجين والفقراء، تذوقوا الذّل والهوان وسكنوا بعد تلك القصور خيمًا، وراحوا يصطفون في الطّابور لأجل لقمة العيش. عوائل فُقِدتْ بأكملها اختفت من الوجود بطرفة عين. يخرجُ الرّجل من السّجن ليس برجلٍ، وتقدّم المرأة جسدها لأصحاب النفوس الدنيئة لتحصل على طعام يُشبع أولادها، وتحت الجسور سكناهم. زوجها قتيل، ووالدها سجين، وأخاها مفقود، وعم أولادها لاجئ في بلادٍ أوروبيّة، وإخوتها لا تدري بأي بلاد صرنَّ. وأكثر من هذا حصل... ويحصل!

لم نكن -خالتي وأنا- نعرف للنوم لذّة، ولا للحياة طعمًا في فترة غيابه المرّة، ولم يترك والده وأعمامه من

وجهاء عشيرته بابًا ولم يطرقوه فتراهم يومًا في حلب وعشرة في الشام (دمشق)، وشهر ما بين اللاذقية وطرطوس، وكانوا قومًا لهم نفوذهم، لهم معارف من ذوي البذلات العسكريّة والسّوداء الأنيقة، واستطاعوا بفضل الله بعد جهدٍ كبير وبعض الرّشاويّ أن يصلوا إليّه ويخرجوه من سجن تدمر، فكانت عودته معجزة في وقتٍ عرفنا به معنى مقولة "ذهب ولم يعد " وصارت هاجسنا المُرعب وكابوسنا اليوميّ.

بعد ثلاثة أشهر وخمسة أيام..

عاد "عمّار" نحيلًا، شاحبًا، مُلتحيًا، يتساقط القمل من شعره وليس في جسده سنتيمترًا ليس فيه آثار ضربٍ وكدمات؛ ولكن لا يهم... المهم أنه عاد حيًّا!

امتلأت الحارة ابتهاجًا وزغردت خالتي، وبكَتْ عند دخوله البيت وأبكى عناقه لها كُلّ مَن حضرَ اللحظة من الرّجال والنّساء. ولم يبقَ في الحيّ كلّه مَن لم يذهب لتهنئتهم برجعته سالمًا.. وفود ذاهبه ووفود آتيّة! والكلّ سعداء لعودته لحضن أبويّه مُعافًا، هما لا يملكان في الدّنيا سواه، فهو كلّ ثروتهم، ولو كانا يستطيعان لوضعاه في قارورة وأغلقا عليه خشيّة أن يمسه الهواء بأذيّة.

وحدهُ أبي لم يذهب لتهنئتهم والاطمئنان عليه، جلس قبالة التّلفاز يحتسي قهوته ويُشاهد برنامج "الاتجاه

المعاكس"، متجاهلًا الضّجيج الّذي يأتي من خلف حائط بيتنا الشرقيّ. لم أتجرأ على مناقشته في الأمر وخصوصًا بعد المشكلة الّتي كانت قد صارت قبل أيام بينه وبين عمّي "أبي عمار" في مقهى الحارة، وقد رفع كلّ منهما صوته على الآخر وكادا يتضاربان لولا أن حالَ النّاس بينهم، والسّبب هوَ ذاته، "النّظام والثّورة". وبناءً على هذا، فإنّ "عمّار" ووالده في نظر أبي يتبعان الإرهاب. حزَّ في قلبي موقفه منهما وآلمني ذاك أشد الألم ودعوّت الله كثيرًا أن يصلح الحال بينهما وأن لا يأتي يوم وأُخيّر به بين أبي ومَن أُحبّ، كلاهما مُهجة قلبي. انتظرت الليل بفارغ الصّبر وما أن أسدل ستائرهُ حتى أسرعتُ بإرسال رسالة له على هاتفه المحمول وأخبرته أنّني بانتظارهِ فوق السّطح، وأنا أكاد أموت شوقًا لرؤيته حتى أنّني لم أستطع الانتظار حتى ينام أهلي وأهله.

حملت حذائي -أعزكم الله- بيدي وصعدتُ الدّرج راكضةً، وتسللَ هو هاربًا من الضّيوف وأتاني. ويا الله ما أجملها تلك اللحظة الّتي لاح لي بها طيفه قادمًا نحوي! لم تكن ليلة مُقمرة، لكنّ حتى الظّلام الذي كان سائدًا عجز عن أن يمنعني من رؤية نظراته الهائمة بالحُبّ والشّوق. أحسستُ برغبةٍ مُلحّة للانقضاض عليه وتهشيمه بأسناني والتهامه. وأدركتُ حينها، لمّا

مرَّ هذا الخاطر ببالي أنّ بي جوعًا شديدًا إليّه لم أنتبه إليه إلّا اللحظة.

رباه كم افتقدتهُ! كم وقفتُ وقفتي هذه في مكاني هذا وتخايلته مُقبلًا نحوي كما تلك اللحظة! وكم غصَّ قلبي بذكراه وأنا أُطالعُ المكان الّذي كُنا نلتقي به، والحائط الذي كُنا نستند إليّه! وكم في زياراتي لخالتي استغليتُ انشغالها عنّي واحتضنت قميصه وبكيت وأنا أشمّه! كم جلست على سريره وتأملت مكانه الخالي بحرقة! كم قبّلت وسادته، نرجيلته، كتبه، نظارته، مشطه، كوبه الذي يحمل وردة زرقاء!

رباه كم افتقدتكَ يا عمّار! وكم جلدَ قلبي هاجس أنك لن تعود ولن أراك مجددًا!

ركضتُ نحوه ولم تكن سوى ثوانٍ حتى وجدت نفسي ملتصقة به وأحيط عنقه بذراعيَّ وأنا واقفة على رؤوس أصابعي، إذ كان يفوقني طولًا.

دفنتُ رأسي بصدره أتفقدُ دقّات قلبه وأطمئن عليها دقّة دقّة، مُتناسيةً كلّ تلك الدّروس الّتي علّمني إيّاها منذ صغري ومذ كان حبنا في مهده، إذ لم يسمح لنفسه ولا لي ولا لعلاقتنا بتجاوز حدود الأدب، فلم يكن بيننا كأكثر عشاق هذا الزمان قُبل وأحضان وما إلى ذلك، فأكثر ما قد يحصل بيننا أن تحتضن كفّه كفّي ويقبّلها، أو يقرص خدّي مُغازلًا.

كان يقول لي عندما تتملكني عاطفتي ويوسوس الشّيطان لي فأحبّ الاقتراب منه أكثر -وكنتُ آنذاك ساذجة، أريدُ أن نعيش قصة حُبٍّ كالّتي تعرضها المسلسلات التركيّة والأفلام الهنديّة-: "فلندع حبنا نقيًا، عذريًّا طاهرًا، فأجمل الحُبّ ذاك الّذي يُكللُ بالأدب ولا يتجاوز طرفاه الخطوط الحمراء للأخلاق." لم ينس كُلّ هذا ورغم اشتياقه لي شعرتُ أنّه يحاولُ إبعادي عنه؛ لكنّي كنتُ متشبثةً به بقوّة، ولا أدري لماذا بدأت بالبكاء! فيضٌ من الدّموع انسكب من عيني، والعاشق يمرّ أحيانًا بحالاتٍ غريبة لا تُفهم، تكون مزيجًا بين مشاعر عدّة وكثيرًا ما تكون مُتناقضة. قليلًا وتغير موقفه وكفَّ عن محاولاته الفاشلة للتحرّر مني، أحاطني بذراعيه وضمّني إليه بقوّة وهمس قائلًا: "لا بأس، لا تبكِ أنا هنا!"

صرخت: "أنتَ هنا؟"

كففتُ عن معانقته، وانهلتُ ضربًا على صدره بقبضتيَّ ولست أدري بما كان يخفيه وراء قميصه من جروح، وأنا أعاتبه بانفعال: أنتَ هُنا... وأين كنت؟ ها أخبرنَي أين كنت! كدّتُ أموت خوفًا عليك، أقسمُ إن عدتَ للخروج في المظاهرات، وإن ذكرت كلمة حُريّة بعد اليوم لسوف أهجرك وأتزوّج بأوّل خاطب يدّق بابي، ولتذهب أنت وثورتك وسوريّتك كلّها للجحيم.

لمحتُ ظلّ ابتسامة على شفتيه الشّهيتين وقد استفزّني الهدوء المُسيطر عليه، كنتُ سأضربه أكثر وأصبُّ جم غضبي فوق رأسه لولا ذاك الصوت الذي جاءني من خلفه يقول لي:

ـ ابنتي، عاتبيه من غير ضربٍ يكفيه ما فعلوه به أولاد الحرام.

تجمّد الدّم في عروقي، كذّبت مسامعي التي تعرّفتْ على الصوت من فورها، ومددتُ رأسي بحذر وهدوء لأرى مَن المُتكلم، وأدركت صدق مسامعي لمّا رأيت خالتي واقفة على مقربة تحمل حصيرة كان أحد الأولاد قد أوقع إبريق الماء عليها، فخرجت لتنشرها وأمسكَتْ بنا بالجرم المشهود، وعلى وجهها ضحكة تشبة حد التّطابق ضحكته وهو ينظر إلى حالتي بعد هذه المُفاجأة الصّادمة. هل سبق ومررتم بموقف شعرتم به من شدة الإحراج أنكم بحجم نميلة أو أصغر! هذا ما شعرتُ به لحظتها وأنا مُنكمشة على نفسي مُتجمّدة في مكاني يتآكلني الخجل.

ـ وماذا فعلتِ؟ وماذا سأفعل... هربتْ!

خلال دقيقة ونصف كنت قد نزلت الدّرج ركضًا ودخلتُ غرفتي، وأغلقت الباب، ودرت بها خمس إلى ست دورات، وصفعت خدّي، وعضضت أصابعي، ودخلت

فراشي، واختبأت تحت اللحاف. لقد رأتني بين أحضانه ماذا ستقول عني الآن؟! وأنا أعرفها جيدًا وأعرف كم تكره البنات اللواتي لهنّ علاقات حبٍّ قبل الزّواج، فكيف ستقبل بي كنة لها بعدما رأتني بين أحضانه، في موعد سريّ وعتمة الليل تحكم؟ هل سيخبرها أنّها المرّة الأولى الّتي يحصل بها ما حصل؟ وهل ستصدّقه؟ كيف سأضع عيني بعينها مجددًا؟ ماذا سأقول لها إن سألتني عن الأمر؟ ماذا سأفعل بنفسي إن وبختني غدًا؟ وبقيتُ طوال الليل أُهلوس بهذه الأفكار.

ـ ثمَّ ماذا؟

ثمَّ أيقظتني "وتين" في صباح اليوم التّالي هامسةً في أذني: قومي يا عروس.. جارتنا "أم عمّار" جالسة مع أبيكِ في الصّالون تخطبكِ لابنها وأنتِ نائمة!

الفصل الثّالث

قال: لا..!

وهو يُحرّك الفيل و"حنين" الّتي تُشاركهُ حُبّ لعبة الشّطرنج تجلس قبالته تُفكر كيف تقضي على فيله!
قلتُ وكان في قولي بعض الوقاحة: وماذا عن رأيي ألا تسألني عنه؟!

بحلقَتْ "حنين" بي بدهشة ثمّ نظرت إلى وجه أبي تتفرسه، حاول والدي قدر استطاعته الحفاظ على هدوئه في مواجهة هذا الموقف المفاجئء. قطعًا هو لم يتوقع أن أجلس قبالته وأسأله لماذا أجاب خالتي ردًا على طلبها، ولكنّه تفهّم أن جرأتي هذه نتجت عن عدم وجود امرأة أكبر مني في البيت وعادةً في مثل هذه المواقف تكون الأمّ أو الأخت الكبرى -في حال غياب الأمّ- هي صلة الوصل بين الأب وابنته أو على الأقل قي مجتمعنا المُحافظ هذا. أشعلَ سيجارته بهدوء وطلب من "حنين" إعداد قهوة له ثم العودة وإتمام

اللعبة. أوحى لي هذا أنّه يريدُ مُناقشتي في الأمر، وعلى الأغلب يُريد إقناعي أنّه اختارَ لي الأفضل وسيقول لي أنّه أدرى أين تكمن سعادتي ومع مَن! فقررتُ في سرّي أن أمسك زمام الحديث وبادرتهُ قائلةً: أبي؛ أرجوك لا تقيّمه نظرًا لتوجهاته السّياسيّة فهاته أشياء تتغيّر كلّ يوم ومع كلّ حدثٍ جديد، فمن يدري ربما غدًا يَجِدُّ جديد فيصحو هو على نفسه ويدركُ أنّه انحاز للجهة الخطأ، وربما تُغيّر أنتَ رأيك وتنحاز لذات الجهة الّتي تراها الآن على خطأ. ولم أعرفك إلّا راجح العقل، واعيًا، وما توقعتُ منك إلّا أن تنظر لأخلاق الشاب وأدبه وحسن تربيته وأنت خير مَن يعرفه وأهله، ولطالما امتدحتهم أمام أقاربنا وقلت أنّهم من خيرة الجيران. وإنَّ لخالتي الفضل علينا، وحاشاك أن تكون ناكرًا للجميل.

ـ لو كنتُ ناكرًا للجميل ما كنتُ لأستقبلها أمس، أتتني خاطبة وزوجها يمرّ بي ولا يُلقي عليّ التحيّة؟! أمّا عن قولكِ أنّي كنتُ أمتدحهم.. نعم؛ ولكن كان هذا في الماضي أمّا الآن فلم تعُدْ بالأب وابنه أيّة خصال حميدة تُمدح.

قاطعتهُ: لكنّك أنتَ أيضًا لا تُسلّم عليه وشتمتهُ أمام النّاس كلّهم. قال بغضبٍ وقد علا صوته: ولن أُسلّم؛ ما هو وابنه إلا عملاء خونة.

ـ هُم ليسوا كذلك..! نطقتُ ذلك بانفعالٍ.

نظر إليَّ مذهولًا وقال بهدوء معاتبًا:

ـ أترفعين صوتك بوجهي لأجل حثالة؟ أهكذا ربّيتُكِ يا "مجد"؟!

قفزتُ من مكاني وجثوت عند ركبتيه، أُقبّل يديّه وأبكي وأتوسله أن يغفر لي زلة لساني، ولكنّه دفعني عنه وكان قد بلغ الغضب به ذروته، ونهضَ وهو يقول حاسمًا الأمر:

ـ أن أقتلكِ وأقطّعك لأهون عليَّ من تزويجك لهذا الصّعلوك. وحذار.. ثمّ حذارِ أن أسمع بإسمه مُجددًا داخل هذا البيت.

هشّمَ الحزن قلبي، وعصفت به رياح اليأس، فأطفأت كُلّ أملٍ يشعُّ في جوفه. كان هاتف عمّار مُغلقًا طوال الوقت، انتظرتهُ ليالٍ عدّة على السّطح ولم يأتِ. وكان قرار أبي نهائيًا، محسومًا في نظر "عمار"، و قد حالَ تواجده الدّائم في البيت بعد إغلاق مكتب السّياحة الذي كان يعمل به دون عروجي إلى خالتي لأطمئن عليها وعليه.

أرسلتُ "حنين" إليّهم بحجّة استعارة فرشاة السجّاد وعادت لي بأخبارٍ لا تسر، قائلةً أنّه طلب من أبيّه زيارتنا، ليخطبني خطبة رسميّة من أبي؛ لكنَّ والده

رفض أن يدوس عتبة باب بيتنا وقال عن أبي بأنّه "شبّيح"، وتجادلا طويلًا دون أن يقنع أحدهما الآخر وأظن أنه قام بصفع "عمّار" و...

سألتها بانفعالٍ: و...ماذا؟ انطقي!

قالت في صوتٍ مُضطربٍ: يُريد "عمّار" أن ينضم للجيش الحرّ.

ويلي.. ويل قلبي إن فعلها!

التزمتُ الصّمت وفراشي والحزن لأيامٍ ولم أعد أخرج من غرفتي إلّا للضرورة، ولم يكن يُكلّمني أبي إلا للضرورة أيضًا.

لأستيقظ ذات صباحٍ أسود اللون على خبر التحاق "عمّار" بالثّوار. بكَيتُ، لطمت على وجهي، خمّشت خدّيَّ، وأختاي تحيطان بي، تقبّلاني، تواسياني، تحاولان التّخفيف عنّي؛ ولكن كيف أهدأ والشّعور بالذّنب ينهشني، كيف سأسامحُ أبي؟ كيف سأُسامحُ نفسي إن أصابهُ مكروه؟! كيف أهدأ و"عمّار" مضى إلى الموت؟!

وقفَ أبي خلف الباب حائرًا، ماذا يفعل وليس أصعب من أن يُزوجني لِ "عمار" إلّا أن يراني بهذه الحال حبًّا به!

فهل يأتي بخيزرانة ويضربني كما يفعل أكثر الآباء هُنا عندما تُجاهر بناتهم بحبّ شاب؟! أم يفتح هذا الباب ويحتضنني بحنانٍ كما يفعل عادةً عندما يدخل غرفتي في مُنتصف الليل ليتفقدني ويُغطيني فيجدني أحتضنُ صور أُمّي وأبكي اشتياقًا لها؟!

لم تكن خالتي بأفضل حالٍ مني وقد لازمت الفِراش، وحزنت عليه حزنًا يعقوبيًا، وكادت أن تبيّضَّ عينها من البكاء عليه، وأصابها مرض السّكر فحصل أن أُسعِفت إلى المستشفى ثلاث مرّات خلال شهر. ومرَّ الخريف بطيئًا وكأنّه حلزونة تزحفُ، ولم يمرْ "عمار" بحارتنا الّتي غدت بعده باهتة فارغة.

ثُمّ أقبل الشّتاء ثقيلًا باردًا ولم يَرِد من الحبيب الغائب أي خبر يُطمئن نفوسنا القلقة خصوصًا وقد قُطعتْ شبكة الإتصالات اللاسلكيّة، وكل ما استطعنا معرفته أنّه " ليس في الرِقةِ وهو بخير" هذا ما قاله صديق له. كان قد التحقا معًا غير أن الأخير تمّ رفضه إذ كان يُعاني من حالات صرع أو ما شابه، وهذا كلّ ما كان يعرفه الشّاب. قلَّت زياراتي لها بشكلٍ ملحوظٍ في الآونة الأخيرة رغم إدراكي أنّها كانت بحاجتي؛ لكنّني لم أكن أحتمل رؤيتها بتلك الحال، وبأيّ وجه أزورها وأنا سبب رحيله وبالتّالي فأنا سبب كُلّ ما تُعانيه من مرضٍ وحزنٍ.

وكانت المسافة بين العائلتين تزدادُ اتساعًا فأُمّي توفيت، و"عمار" رحلَ، وأبي وعمي لا يكلّم أحدهما الآخر، وخالتي مريضة في الفراش، وأختاي مُنشغلتان في دراستهنَّ، وأنا منطويّة على نفسي لا أُغادر المنزل أبدًا، حتى ذاك اليوم...

قُبيل رأس السّنة بيومين، السّاعة الواحدة بعد مُنتصفِ الليل، دُقَّ جرس الباب بقوّة حتى خلتُ الطّارق يُريد كسره. الجوّ كان ماطرًا، حجبت سُحبه المكفهرّة المتلبدة في كبد السّماء منذ العصر كُلّ نورٍ قد يستدل به المرء على طريقه إلّا ومضات البرق. هرعَ أبي مُسرعًا إلى الباب ليفتحهُ، وهرعتُ خلفه أُتمتم سائلة الله أن يجعله خيرًا؛ ولكن أيّ خيرٍ سيأتيك في منتصف ليلةٍ كهاته الليلة وجوٍّ كهذا الجو!

ما إن فُتِح الباب ووقعَ بصري على ذاك الجسد النّحيل منكمشًا ثلثه الأعلى تحت جاكيت أسود يحتمي به من المطر، مُبتلًا مُرتجفًا، حتى قفزتُ مُتخطيّةً أبي وأمسكتُ بيدي "هنادي" -وهي ابنة أخت "أم عمار" أتوا بها لتخدمها وتؤنسها في فترة مرضها- سألتها:

- ماذا هُناك "هنادي"؟ ما الّذي أتى بك إليّنا في مثل هذه السّاعة؟ ردّت بصوتٍ مُرتجف ولستُ أدري هل ما كان يبلل وجهها دمعًا أم مطرًا:

- أرجوكِ مجد.. تعالي معي بسرعة.

- إلى أين؟

- خالتي مريضة، وخالي ليس في البيت، لقد ذهب إلى القرية أمس ولم يستطعْ المجيء اليوم بسبب المطر. ولا أعرف أي دواء أعطّيها، قالت أنّك تعرفين أدويتها، بسرعة تعالي معي.

نظرتُ إلى أبي فقال لي: اذهبي فورًا... وأنا سأُبدل ملابسي وأذهب لإحضار طبيب.

قلتُ مؤيدةً: نعم؛ أرجوك أسرع!

لكنّ الفتاة قاطعتني معارضةً: لا.. لا أظنها بحاجة لطبيبٍ، سترتاح بعد تناول الدّواء، سبق ورأيتها بهذه الحال عدّة مرّات، وإن ساءت حالتها -لا قدّر الله- سنخبركَ حالًا عبر الهاتف. بدا أبي مقتنعًا وأوصاني بالاتصال به لطمأنته عليها قائلًا أنّه سيبقى بقرب الهاتف حتى أتصل.

كدّتُ أن أتجاوز عتبة الباب عندما استوقفني ليُذكرني بلبس حجابي، وكنتُ على وشك الخروج سافرة الرّأس دونما انتباه. فتبسمتُ وقلتُ له وأنا أضع قبّعة كنزتي على رأسي: الظّلام شديد، وليس بين البابين سوى عدّة خطوات.

وعلّقتْ الفتاة الذكيّة ذات الثلاثة عشر عامًا وهي مُنحنية لتفتح الباب: يقولون أنّي لا أُجيد فعل شيء،

ليتهم رأوني وقد وضعت (منى واصف) في جيبي الصّغير! لم أستفهم عن قصدها وإن بدا لي قولها غريبًا، فما علاقة (منى واصف) وهي فنانة سوريّة كبيرة بما يحدث! لم أهتم بالأمر كثيرًا وقد ركضتُ فور دخولنا إلى غرفة خالتي، مددتُ يديّ إلى مقبض الباب لأفتحه لكنَّ يدًا أخرى من الجهة الثّانية للباب كانت قد سبقت يدي. وفُتِحَ الباب، ليظهر أمامي آخر شخصٍ توقعتُ أن أراه...

عمّار! شهقتُ ورجعت خطوة للوراء واتسعتْ عيناي بالتّعجّب غير مستوعبة ما أنا به، بينما هتفت هنادي : مُفاجأة! ثمّ وجهَتْ الكلام ل"عمّار" وقالت:

أصبحت الآن مدينًا لي، عندما سأقع طريحة العشق سيكون عليك أن تجلب لي حبيبي في ليلةٍ ماطرة، بعد أن تكذب على أهله وتُمثل مشهدًا دراميًا.

ابتسمَ لها عمّار من غير أن يحوّل بصره عن عينيَّ، بينما ردّت عليها خالتي وأنّبتها قائلة: ما هذا الكلام يا هند؟ أجابت البنت لتستفز خالتها وكم يحلو لها هذا: وما الغلط في قولي؟ سلي عمّار لماذا يقاتلون ويموتون على الجبهات مضحين بشبابهم، أليس من أجل الحريّة؟ فهل ستمنعوننا أن نحب ونعشق في زمن الحريّة أيضًا؟

وبينما اشتدَ النّقاش بينهنَّ حول مفهوم الحريّة كنا عمّار وأنا لا زلنا تحت تأثير مُخدر اللحظة الأولى. يُحدّق كلٌ منا في عيني الآخر وكأنهُ تائهٌ، وجدَ أخيرًا طريق العودة إلى الدّيار. انفرجتْ شفتاي بعد جهدٍ كبير لتخرج من بينهما ثلاثة حروفٍ بصوتٍ مُتهالكٍ مبحوح:

- أ..ن..ت؟

ردَّ هامسًا، مُبتسمًا: أنا..

أحسستُ بساقيَّ وكأنّهما عيدانٌ هشّة وكأنّ جسدي فوقهما كما جبل ثقيل، وخانتني قِواي وكدّتُ أقع، غير أنّني تداركتُ الأمر سريعًا فاستندتُ على كرسي كان إلى يميني ثمّ تهالكت عليه بجسدي المُثقل بالصّدمة واغرورقت عيناي بدموع الفرح.

جثا على ركبتيه أمامي، ببنطالهِ العسكريّ وكنزته السّوداء الثّخينة ولفحته الرّمادية تحيط برقبته ذات الشامتين، بوجهه الشّاحب الملتحي، وعينيه الحنونتين تكسوهما هالةً من التّعب والإرهاق، وكأنّه لم ينم منذ أيام!

عيناه الطافحتان بالسّواد أحجية... عجزوا أن يجدوا لها حلًا كلّ الأطفال القابعين بي.

أمسك بيدي قبّلها وهو يمسح عن خدّي دمعة حارّة بكفّه الكبيرة الّتي بدّت لي خشنة، وكأنّها كف فلاح أرهقتها المجرفة، لا كف طالب علم لم يحمل بها إلّا القلم.

ـ كفّي أرجوكِ، ما أتيتُ لتحرقيني بدمعكِ.

ـ أين كنت؟

ـ في بلاد الله الواسعة.

ـ هل ستعود؟

ـ دعكِ من هذا، أخبريني كيف حالك؟

ثمّ أضاف مؤنبًا بعصبيةٍ مصطنعةٍ، وهو ينظرُ إلى قبّعة كنزتي وقد بدا من تحتها بعضًا من شعري :

ـ كيف تخرجين من البيت هكذا؟

وقبل أن أُجيب كانت "هنادي" قد تنحنحت للفت انتباهنا ـبعد أن اشعلتْ المدفأة الّتي سرعان ما طردت حرارتها البرد من الغرفةـ وقالت: سأتصل بعمّي وأطلب منه إذنًا لك لتظلي باقي هذه الليلة هُنا، فلا أظن حديثكما سينتهي قبل الفجر، وسأعدُّ قهوة كيف تحبانها؟ ومصادفة أجاب كلٌ منّا عن الآخر في ذات الوقت، فلمّا قلتُ أنا: لهً سادة. قالَ هوَ: لحلوتي حلوة.

فعلّقت هنادي وهي تخرج ضاحكةً: "يا أمي ع الحبّ شو حلو". ثمّ وجّهت الكلام لخالتي التي افترشت

سجادة الصّلاة في غرفتها وهمّت لتُقيم الليل شكرًا لله على عودته سالمًا، ولتمنحنا بعض الخصوصية: خالتي؛ أُريدُ حبيبًا.

ـ كيف تعيش هُناك؟ ماذا تأكل؟ أين تنام؟ حدثني عن كلّ شيء. وضع إصبعه على شفتيَّ وهو يتأملني كما يتأمل الفلاح الصّائم المُنهك العَطِش جدول الماء العذب البارد في ظهيرة يوم حارٍ.

وقال: أص.. متى أصبحتِ ثرثارة هكذا؟ اصمتي قليلًا ودعي عيوني تشبع من وجهك، أتدركين كم اشتقت لكِ يا فتاة؟

أمسكت بيده وشددت قائلةً:

ـ عمّار؛ أتوسلك ابقَ معنا، إن لم يكن من أجلي فمن أجل خالتي، ارحم حالها، وإنّك لم تكن يومًا بالابن العاق.

ـ لبعضهم أولاد، ولبعضهم أخوة صغار كانوا يعملون ليعيلوهم، ولأكثرهم زوجات ابتعدوا عنهنّ بعد أسبوعٍ من الزفاف، وهناك من ذوي المال والنّفوذ لم يكن ينقصهم شيئًا في حياتهم، و... وكلّهم تركوا كلّ شيء خلفهم، ضحوا بكلّ شيء عندما سمعوا نداء الوطن واستغاثاته وحان وقت الجهاد. وأنتِ تطلبين مني

التقاعس عن تأدية واجبي رأفة بحال أمٍّ وتأثرًا بتوسلات حبيبة تخاف فقداني! أيرضيكِ أن أترك سلاحي وميدان المعارك حيث لا يقف هُناك إلا الرّجال وأعود لأجلس قبالتك وقبالة أمي؟ أيرضيكِ أن أعود للذل والهوان بعدّما تذوقت طعم الحريّة وعرفت معنى الكرامة؟!

ـ لكنّني لن أُسامح نفسي إن أصابك مكروه، ولن أسامح أبي!

ـ وما شأنكما بالتحاقي بالثّورة؟

ـ ماذا تعني؟ أنت غادرت بسببنا بعد رفض أبي وخلافه مع أبيك، ولكنّني، كُن متأكدًا، سأقنعهُ وإن رفض سأهدده بالهروب معك، وإن بقيَ على عناده سأفعلها ولتهدر العشيرة دمي لا أبالي.

ـ إنّك تهذين يا فتاة، اطردي من رأسكِ هذه الأفكار فلا وجود لها، وأنا منضمٌّ للثورة من قبل أن أخطبك وأنت تعرفين هذا. ثمّ أنّي لست بالّذي يتزوج بهذه الطّريقة المُقززة، فإمّا أن تخرجين من بيت أبيك إلى بيتي معززة مكرمة كما يليق بك وبأهلك، أو تبقين في بيت أبيك وفي قلبي معززة ومكرمة.

لم أجدْ ما أقول وبدا لي أن خلف قوله الأخير قرارًا بالانفصال لا يدري كيف يخبرني به!

لم أجد أيضًا أن هُناك جدوة من محاولاتي في إقناعه بالرّجوع عن قراره والبقاء معنا، ومتأكدة أن خالتي ناقشته في الأمر طويلًا ولا أرى محاولاتها قد أثمرت. لذلك توقفت عن هذا ورحت أستجوبه بالأسئلة السّخيفة ذاتها محاولةً تكوين صورة شاملة لحياته هُناك.

فلمّا سألته: ماذا تأكلون؟

ضحك ملء شدقيه وهو يقول: كما تأكلون أنتم، أم تتخيلن أنّنا صِرنا وحوشًا نأكل لحوم البشر أو ربما مصاصي دماء، أتريدين أن أقوم بتحويلك يا "پيلا" ؟

لم أضحك ولا حتى ابتسامة مُجاملة. وانتقلت لسؤال آخر وقد استفزتني سخريته:

ـ هل قتلت أحدًا؟

ـ ما هذا السؤال؟

ـ أرجوك أجبني.

تنهد في ضيق وتناول فنجان القهوة خاصته، ارتشف منهُ رشفة على مهلٍ، وقد سرحَ فكره قليلًا قبل أن يقول:

ـ لا؛ اطمئني.. لا أزال خاضعًا لدورة تدريبيّة.

ـ أكلّ هذه الشّهور في التّدريب؟!

ـ هذا لأنّنا قوات خاصة نخضع لتدريبٍ مُكثفٍ.

ـ لم أفهم!

ـ مَجد؛ لا حاجة لك بمعرفة هذه الأمور دعك منها.

ـ عمّار؛ أصحيح أن إسرائيل تمولكم؟

ـ مَن حشر داخل رأسك كلّ هذه التفاهات؟. قال بعصبية

وبدا لي واضحًا أن مزاجه قد تغير فسكتُّ قليلاً؛ لكنّني لم أستطع ابتلاع السّؤال الأهم الذي لطالما قض مضجعي، فرشقته به دونما رحمة:

ـ عمّار؛ هل تتعاطون المخدرات؟

سدّد إلى وجهي نظرة شعرت بالشّرر يتطاير منها ويخترق جسدي، فلم أستطع مقاومتها؛ لذا أشحت بوجهي عنه وتمتمت هامسة: أعتذر؛ لم أقصد. ولكن على عكس نظرته جاءني صوته هادئًا حنونًا وقال برقّة وقد لانت نظرة عينيه:

ـ مجد انظري إليّ. فنظرتْ.

ـ هل أبدو لكِ مُدمنًا أو مُجرمًا؟ هل تشكّين بولائي لديني ووطني؟ هل تشكّين أنني سأبقى هناك ليومٍ لو كانت هذه الشّائعات التي يتناقلها النّاس عنّا صحيحة؟.

لم أجرؤ بعدها على طرح أي سؤالٍ مشابه وقد انضمتا إلينا خالتي وهنادي وجلسنا جميعنا قرب المدفأة على

ضوء الشّموع -وكانت الكهرباء قد انقطعت- في جلسة سمرٍ لا تُنسى حتى اقترب موعد آذان الفجر فودّعناه عند الباب وكان أصحابه ينتظرونه على مقربة.

نكزته "هنادي" قائلةً: هيه عمّار عرّفني على أصحابك هل بهم أحدًا أشقر؟ نهرتها خالتي فالتزمتْ الصّمت، وسألتْ عمّار وهي تعانقه عِناق الوداع: وحيد قلبي..متى ستزورنا مجددًا؟

أجابها وبدا لي واثقًا مما يقول: قريبًا جدّاً بإذن الله.

بينما كان وداعنا أنا وإياه صامتًا، تبادلت به عيوننا نظرات حزن وانكسار وقلق واشتياق في لحظات خاطفة، ولست أدري صراحة أهو الخجل من خالتي الذي أسكتنا أم كلّ المحبين في اللحظات الأخيرة من الوداع لا يجدون ما يقولونه؟!.

حتى خرجَ، أغلق الباب خلفه فجفلتُ، وقد صحوتُ على نفسي.. حمقاء أنا كيف سأتركه يرحل دون أن أقول له "أحبّك"! خرجتُ خلفه راكضة وكان المطر قد توقف منذ حينٍ ولكن لا تزال السّماء مُتلبدة بالسّحب السّوداء والظّلام سائد بشدّة حتى أنني ما استطعت تمييزه من صاحبيه وكانوا جميعًا في ذات الطول والقد.

قلت: "عمّار"..

فاستدار الثلاثة نحوي وتسلل إلى مسامعي صوتٌ خشنٌ قال: سننتظركَ عند مدخل الحارة لا تتأخر!

غادر اثنان وبقي هو... ركضتُ نحوه، عانقته بكلّ قوتي، بكلّ ضعفي ووجعي وحاجتي، بكلّ اشتياقي له، الّذي ما لم يزده اللقاء إلّا اشتياق. عانقته غير آبهة لوقوفنا في الشارع داخل مدينة تغفر للزاني خطيئته، وتسامح مَن يعيث بها فسادًا، وتعذر اللص، وتبرر للكافر، وتتهاون مع المشرك، وحده العاشق تحاسبه على النّظرة وتحاكمهُ على الابتسامة ولا تغفر له مثقال ذرة حبّ. لم يُفسِح لي مجالًا لأقول له الكلمة التي خرجتُ لقولها، فسبقني بالكلام وقال هامسًا في أذني - وأنا مختبئة من كُلّ شيء بين ذراعيه-: مجد... قد لا أعود فإذا خُطبتِ لرجلٍ صالحٍ.. لا تترددي. ولن أسامحكِ إن بقيتِ بلا زواج وبهذا أوصيكِ.

شُنِقَتْ آلاف الكلمات بحبالي الصوتية، ولم تعد بي قوة كافية لابتلاع ريقي، وحدها عيوني عبّرت عن الأسى القابع بي، عن حرقة قلبي، وجادتْ بالدّموع دون بخلٍ وهي تشيّعه بنظرات ألم وهو يطبع قبلة على جبيني، ويمشي مبتعدًا، ينضم لرفاقه، يلتفتْ نحوي فأُلوّح له بيديّ؛ لكنهُ لا يلوّح لي، يمشون بضع خطوات ثمّ يختفون جميعًا خلف الحائط.

أرأيتم ما تفعله النار بعيدان الحطب الهشة كذلك فعلت وصيته تلك بقلبي! أحمق هو، أبله، يوصيني بالزّواج وكأنّني سأبقى على قيد الحياة إن مات وكأنّني سأعيش بعده ساعة! وظننته لن يعود...

ولم تمر بي ليلة دون أن أتذكر ما همس به فأحرق قلبي. دون أن أبكي إشفاقًا على أروحنا المُعذبة، كم علينا أن نحتمل بعد يا عمّار؟ كم؟!

وعاد عمّار...

وعاد بعد تلك الليلة بست وستين يوم، وكنتُ أعد الأيام يومًا يومًا، عاد كما وعد والدته؛ ولكن ليس وحده هذه المرة وليس في ظلام الليل مُتسللًا كاللصوص وإنّما في وضح النهار، عاد في يدّه بندقيته، ومعه رفاقه ويرفرف فوق سياراتهم المُلطخة بالوحل علم الثورة.

كان ذاك في الخامس من آذار لعام 2013 هذا التاريخ الذي لن تنساه محافظة الرّقة خاصة والثّورة عامة، وكيف وبه استفاقت -على حد قولهم- المدينة الغافية على كتف الفرات لتكون عروسًا للثورة وتُزف في موكبٍ حربي وسط زمجرة الرّصاص ودويُّ المدافع، ليفرح بها كلّ الثوار في شتّى المحافظات السوريّة وتزغرد فرحًا بها أمهات الشّهداء الثكالى وأراملهم والأيتام! فكانت الرّقة أوّل محافظة سوريّة تتحرر من قبضة النّظام الحاكم. وكم كان يومًا طويلًا وصعبًا...

غارات مكثفة، طائرات تقصف بالبراميل المتفجّرة ترمي بها من عُليٍّ كيفما اتفق وصواريخ وقذائف لا نعرف من أين تأتي! كان الثوار بمدافعهم ودباباتهم وسياراتهم في شوارع المدينة بينما تحصّن عناصر الجيش في الفرقة (17) الواقعة شمال المدينة بموقع استراتيجي ممتاز بحيث تفصل نصفها الشّمالي عن نصفها الجنوبي، محصّنة بشكل جيّد حيث استطاعت الصمود قرابة السّبعة أشهر وإن كاد عناصرها يموتون جوعًا، ومنها كان يتم قصف المدينة والثوار على حدٍ سواء، فلم تكن هناك أيّة مشكلة في أن تهدم بناية ويموت عشرات المدنيين في سبيل القضاء على ثائر واحد، على كلّ حال فقد هبط خلال هذه الأزمة سعر الإنسان السّوري حتى صار أرخص السّلعات وعلى هذا اتفق تجار الحروب عندما قرروا استثمار أموالهم في حرب سوريا الأهليّة.

كانت الجثث في كُلّ مكان، وجرحى يتلوون في الشّوارع ألمًا وليس من مكانٍ يُسعفون إليه، وأبنية مهدّمة، وأخرى تحترق، والنّاس تركض دونما وعيٍّ هاربة إلى حيث لا تدري، قلوبٌ وجلة، عيونٌ دامعة، توسلات ملأت السّماوات السبع ليتلطف الله بهم فيما قضاه. في حركة نزوح شاملة تقشعر منها الأبدان، لم يحمل أحدًا معه شيئًا لا هندامًا ولا فِراشًا ولا ما يُسد به الرمق، حتى أن أكثرهم نسوا أوراقهم الثبوتية وما إلى

ذلك من أوراق تخص أملاك أو أرزاق أو شهادات دراسيّة. ترك الناس بيوتهم مفتوحة الأبواب والنّوافذ ولم يكن همّ أحدهم إلا النّجاة بنفسه وعائلته، فعلًا "إن الرّوح غالية".

وأكثر ما كان يُحزِن أولئك الآلاف من النّاس الذين نزحوا من دير الزور والسفيرة وتدمر إلى الرقة الّتي كانت حتى ذاك اليوم من أكثر المدن السوريّة أمانًا، فخرجوا من المدارس حيث كانوا يسكنون ولا يدرون إلى أين يذهبون، أيشرّقون أم يغرّبون! وشبح الموت يحلّ حيث يحلّون وكأنّه يلعب معهم لعبة القط والفأر. وضعنا أبي في السّيارة ونحن في حالة رعب وبكاء هستيريّ، عرجنا على بعض أقاربنا ممّن لم يكن لديّهم وسيلة نقل واتصلوا بأبي يستنجدون به.

خرجنا من المدينة بعد معاناةٍ كبيرة، فحينًا نعلق بالازدحام وحينًا نجد المعبر الذي نقصده مغلقًا بالسواتر الرملية وحينًا نغيّر مسارنا تجنبًا لشوارعٍ نرى بها دبابات أو مدافع.

كنّا في السّيارة الصّغيرة سبعة عشر آدميًّا وأكثرنا من الأطفال الذين لم يتوقفوا عن البكاء والصراخ، وأُغمي على "حنين" عندما رأت جثة تحترق ممّا زاد في توتر أبي حتى كاد أن يصطدم بشاحنةٍ. مكثنا ما يزيد على

الأسبوع في مدرسة بإحدى قرى الرّيف الشمالي إذ لم تكن قرى أعمامنا في الريف الشّرقي آمنة.

كانت كلّ غرفة من غرفها تضم من ثلاث إلى أربع عائلات، وكذلك كان حال كلّ المدارس والمستوصفات والمراكز الحكوميّة، وللأمانة لم يقصّر القرويون فكلٌ منهم استضاف في بيته عائلة أو عائلتين حسب مقدرته وغرف بيته. لم يكن هُناك ماء سوى مياه الآبار العكرة ولا خبز سوى خبز "الصاج" ولا كهرباء ولا شبكة اتصالات، وقد عاد الناس مائة سنة إلى الوراء، أيام الطبخ على النار أو على "البابور" ، ولمبة الغاز، وجر الماء من البئر بحبل ودلو، بعد أن قضوا الشتاء يتدفئون على مدفأة الحطب إذ لم يكن هناك مازوت، وليس هُناك مَن لم يتذوق مرارة الفقر بعد غلاء الأسعار الجنوني.

كان كُلّ شيء جديدًا علينا، وصعبًا حتى بعد أن انتقلنا من المدرسة إلى بيت أحد أقاربنا، وقد أفرغوا لنا غرفة وأمّنوا لنا أفرشة ومواعين، وبابور كان أبي قد علّمنا كيف نشعلهُ، وكان نقل الماء من البئر إلى البيت في الصّطل مُتعبًا جدًّا، واكتسبت بشرتنا اسمرارًا إثر تعرضنا لشمس الرّبيع حتى أنّنا في محاولة منّا لإرجاع النّضارة لوجوهنا لم نعد نخرج من الدّار دون لثامٍ.

كانت فكرة أنّنا سنبقى طويلًا هُناك ترعبنا، وتاقت أرواحنا لبيتنا وحارتنا ومدينتنا، وتاقت روحي لسماع صوت عمّار والاطمئنان عليه؛ لذا عندما عرفت بوجود هاتف أرضي في بيت الرجب وهم من أكثر أهل القرية غِنًا، قصدته وطلبت منهم إذنًا لإجراء مكالمة، أذنوا لي ورحبوا بنا أجمل ترحيب وكانت "وتين" برفقتي ولحسن حظي كانت تحفظ رقم هاتف أهل هَنادي وقد نشأت بينهنَّ صداقة متينة. ركّبتُ الأرقام السّتة وقلبي يرتجف.. وكم فَرِحتْ الفتاة بسماع صوتي؛ لكنّها ما لبثت أن انفجرت باكيةً عندما سألتها عن "عمّار" وقالت بصوتٍ مُتقطّع من وسط نحيبها:

ـ عمّار مُصاب. إنّه في العناية المشدّدة ينازع. "عمّار" يموت يا "مَجد".. يموت!

الفصل الرّابع

شعرتُ بوجهي وكأنّه وجه مهرّج، وتسريحة الشّعر فوقه وكأنّها كرة كبيرة ثقيلة. يتوجّب عليَّ الحفاظ على توازني وثباتي لئلّا تقع، وقد أمضت (الكوافيرا) ساعات أربع لِتُخرجني بهذا المظهر. تبًا لها... أخبرتها ألّا تُكثِر لي من (الماكياج) وأن تجعل التّسريحة هادئة وبسيطة، لكنّها أطاعت شقيقات العريس الّلاتي اخترنَّ لي من بين عشرات التّسريحات هذه الكرة الّتي فوق رأسي! ولكنّني وإن كنتُ أطعتهنّ في هذا واستسلمتُ لرغبتهنَّ فقد رفضت رفضًا قاطعًا أن أرتدي الفستان الأحمر الّذي اخترنه لي وأبيتُ إلا فستانًا ورديًّا، فأمضى أبي ساعات من عصر الأمس يبحث لي عن فستان أحلامي، وإنّني -وإن كان قلبي قد آلمني لرؤيته مرتبكًا وهوَ لا يكاد يجد طلبي- لم أتنازل عن رغبتي، وكيف أرضى بسواه بديلًا وكان اتفاقنا أنا وعمّار أن ألبس في خطوبتي فستانًا ورديًا.

صدح صوت الموسيقا عبر مكبّرات الصوت ليصل حتى آخر الحارة، وعجَّ البيت بالضّيوف.. قريباتي والجارات والصّديقات ووفد كبير من قريبات العريس، ورقص ودبك وتصفيق وثرثرة ونميمة.

عينا أبي تشعّان بالرّضا والسّعادة وكلّ حينٍ يأتي إلى الصّالون بحجةٍ ما ويسترق النّظر إليَّ وكأنّه غير مصدّق أنّني كبرتُ وبتُّ عروسًا، فإنّني ما زلتُ في عينيه طفلة كما وتين وحنين لا تزالان في عينيَّ طفلتين حتى هذه اللحظة وأنا أراقبهنَّ يستقبلنَّ ويودّعنَّ ويرحبنَّ ويدورنَّ بين الضيوف لخدمتهم بخفّة وسرعة حتى أنَّ الناظر إليهنَّ طويلًا سيشعر بالدّوّار، أثوابهنَّ حمراء جميلة ضيّقة عند الخصر وواسعة من الأسفل وبها نقوش بخيوط فضيّة اللون برّاقة، وكأنهنَّ سلطانتان، خرجتا لتوّهما من قصرٍ عثمانيٍ متوغل في التّاريخ. وأضحك في سرّي وأنا أرى عيون النسوة تتبعهنَّ ومَن لا تعرفهنَّ تسأل: مَن هاتان الجميلتان؟

وأتذكّر ذاك الحديث الّذي دار بيني وبين عمّتي عائشة الّتي كان قد استعان بها أبي لتساعده في إقناعي بالموافقة على الزّواج من هذا الشّاب الجالس قربي، خرّيج الأدب العربي، والّذي يعمل مديرًا لمدرسة القريّة منذ عامين. ويمتلك بيتًا هُناك، فيه غرفة نوم سعوديّة، يتوفر بها حتى الإبرة والخيط، بغض النّظر عن كون

أهله "عائلة الرّجب" من سادة القوم ولهم شأنٌ عظيم وكلمة مسموعة في العشيرة.

هو باختصار العريس المنتظر في نظر أبي، و(الكامل المكمّل) في نظر تلك العمّة التي أسرّت لي أنَّ أبي عازم على تزويجنا كلّنا.. ليس لأنّنا بتنا عبئًا عليه؛ ولكنّ لخوفه علينا من الأيام ولرغبته في الاطمئنان علينا. خائف من أن يصيبه مكروه.. فكيف ستكون حياتنا بعده، وإن كانت لنا عشيرة طويلة عريضة ستساندنا وتحمينا؛ ولكن أيّ عمٍ سيتكفّل بنا مهما كان طيبًا وحنونًا لن يكون مثله علينا، ثمّ أن النّاس في هذه الأوضاع الصّعبة كلٌ يكفيه ما عنده من بنين والكلٌ معرّض في كل لحظة للنزوح والتّشرد، فلن نكون إلّا عبئًا! وأسرّت إليَّ أيضًا أنّها خطبت منه "حنين" لابنها وقالت أن قريبًا لنا سمّته لي يفكر بخطبة "وتين" ما أن تسير قافلتنا ويصير الطّريق سالكًا أمامه؛ لكن والدي -كما أخبرتني- رفض أن يُفتح هذا الموضوع أو ذاك قبل أن يرى ما ستؤول إليّه حياتي، فحرصًا على مشاعري عزَّ عليه أن يُزوّج أختيَ قبلي.

وحقيقة كان أبي على صواب فيما فكر به وقرره، لقد كبرنا وآنّ آوان زواجنا وهو غير دائم لنا ويعرف جيدًا ماذا ستفعل بنا الحياة إذا ما غيّبه الموت -أطال الله بعمره- عنّا، وحائرة كنت أنا بين المُضي في حياتي

وفتح الطّريق أمام أخواتي أو انتظار عمّار؟ ولكن كيف أتزوّج وهوَ هُناك يموت؟ أهذا هو الأخلاص الّذي عاهدته عليه؟ أهذا هو حبّي له، أمن أوّل عقبة أستسلم؟ لا.. وألف لا!

رفضت حمزة، واشتعلَ فتيل الحرب بيني وبين أبي:

ـ لازلتِ صغيرة لا تُميزين الخطأ من الصّواب.

ـ أي صغرٍ هذا يا أبي؟ هذا كلام اعتدتَ أن تقوله لأختيَّ لا لي!

ـ إذن يا ابنتي الكبيرة النّاضجة اقنعيني، اعطني سببًا يدعوني لرفض "حمزة"؟ أخبريني ما الذي ينقصه؟ ما الذي يُعيبه؟ أستاذ مثقف، متعلم، واعٍ وابن حسب ونسب، وذو خُلق عظيم وهذا ليس كلّامي وحدي، هذا كلام جميع من يعرفونه.

ـ وعمّار لم يكن ينقصه شيئًا ممّا ذكرت!

ـ هل عُدنا مُجددًا لقصة هذا الصّعلوك، ألم ننتهِ منها؟

ـ أأنت الذي يقول عنه هذا يا أبي، أنت الذي لطالما أحببته، لطالما احترمتهُ فما الذي جدَّ؟

وما ذنبي أنا؟ إن كان أمره لا يهمّك أفلا يهمّك أمري؟ ألست تريد سعادتي؟ ما ذنبي لأكون ضحيّة خلافاتكم السياسيّة؟

لم يدرِ ما يقول وقد ارتبك في حزنٍ، بينما باغتتني دمعة قهرٍ ملتهبة شقّتْ خدّي نازلةً. لم أكن أعلم قبل أنّي سأجد نفسي عالقة في هذه الدوّامة، وأنَّ القدر يكفّ عن تقرير مصائر النّاس في حضور الفتن والحروب، فهي التي تتولى المسؤوليّة، تتلاعب وتلهو وتعبث بأقدارنا كيفما تشاء، أعدلٌ أن يُفعلَ بنا هذا؟ شعرتُ بالألم يحيط بي، يلتصق بي، وكأنّه كفنٌ يلفُّ جسدي وأنا مُلقاة في قبرٍ ضيّق مظلم وأدتني به هذه الحرب اللعينة ولا خلاص لي منه إلّا بموافقة أبي على زواجي ممّن أحبّ.. ممّن يكره! ولن يوافق.

رباااه من أين جاءت كل هذه الكراهية لتسكن قلبيهما؟ متى زُرِعتْ تلك القلوب الّتي كانت عامرة بالحب والودّ بهذا الكمّ الهائل من ألغام الحقد؟ ولماذا بحق الله تنفجر في وجهي.. في وجه سعادتي؟ لماذا؟ لماذا؟

أتُراني أذنبتُ حينما وقعتُ أسيرة للغرام في ظلّ الظّروف الرّاهنة وهذه الأيّام العصيبة الّتي تُعانيها البلاد؟ ولكن هل نمنع قلوبنا من أن تخفقَ لأنّ بلادنا تنزف؟ لا! موصول نبضنا بنبضها، علينا أن نحب، أن نتزوّج، أن نضحك، نتكاثر، نبني، نزرع، ندرس، علّينا أن نعيش، أن نواصل حياتنا كي يتعافى الوطن فيعود جبّارًا قويًا، فنحن شريان الحياة فيه وليس هو شريان الحياة فينا. وإنّ هذا الّذي تبغضه هو شريان الحياة فيّ

ولستُ أطلب منك يا والدي إلّا سعادتي، فهل تراني أطلب الكثير؟ ألّا تشعر بما يخنقني؟ ألا ترى أنّني أتنفس ذاك الّذي تكرهه؟

ما ذنبي لأدفعَ ثمن كراهية أدخلتها الفتنة إلى قلبيكما.. ما ذنبي؟ ارحموني! ارحموا قلبًا مُعذّبًا لا ناقة له ولا جمل، ما كان ذنبه إلّا أنّه أحبّ؟ فعلامَ يدفع نبضه تكفيرًا عن أوزار لم يرتكبها.. علامَ؟! استجمعتُ طاقتي وكبتُ غصتي وقلتُ له بصوتٍ مرتجف:

- أبي أتوسلك لا تزوّجني لحمزة.

- إذن ممّن تريدين الزّواج؟

بدا سؤاله مُحرجًا فترددتُ قبل أن أُجيبَ؛ ولكن يجب أن يعرف أنّني اتخذتُ قراري ولن أُحيد عنه فقلتُ بثقة:

- ليس من حمزة.

- كفي عن التّفكير به.

قال قوله الأخير وأشعل سيجارته، أخذ منها نَفَسًا طويلًا وقد سادَ بيننا صمتًا عميقًا. أشارت لي حنين وكانت تجلس خلفه بأن أُكمِل كلامي وقد بدا لنا أنّه على وشك الاستسلام لرغبتي. فقلتُ له بنبرة هادئة أقرب إلى الهمس:

- لا أقدر!

ردَّ بصوتٍ حازم:

ـ إنّه يموت ألا تفهمين.. يموت!

ـ لا؛ فالطّبيب قال أنّ وضعه مستقر وهُناك أمل.

صاحَ بي:

ـ كُلّ الأطباء يقولون أنّ هُناك أمل، أتريدينهم أن يقفوا أمام أهل المريض ويقولون لهم احفروا القبر وجهزوا الكفن! ثمّ تنهّد بضيقٍ قبل أن يُضيف:

ـ مَجد؛ اسمعيني.. عليكِ أن تتقبّلي أنّه يحتضر ولتفهمي أنّني لن أسمح لك بالبقاء عزباء.

ـ لكنّني أحبّه!

حدّق بي بعيونٍ مُلتهبة وقال بحنق وغضب وقد استفزّه اعترافي الأخير، فإنّنا وإن كان كلّ شيء واضح، فلم يحصل أن تحدّثنا بهذا الشأن صراحةُ هكذا:

ـ ما هذا الكلام؟ تحلّي ببعض الحياء. فإن كنتُ أُحبكنَّ وأدللكنَّ وأقدّم لكنَّ كل ما تردّنه، فهذا لا يعني أن تتجاوزنَّ حدود الأدب في حضوري.

ـ أبي أرج...

ـ كفى.. انتهى الحديث! لم يبقَ إلّا أن تقولي سأتزوّجهُ رغمًا عنك!

بعفوية صحتُ معترضةً والدّموع تتدفق من عينيَّ: لن أتزوج.. سأقتلُ نفسي قبل أن تبيعني لهذا القرويّ المعتوه!

لم أشعر إلا وكفّ والدي تلطم خدي لطمة لن أنساها ما حُييت، ليس لأنّها قوية مؤذية؛ ولكن لأنّها أوّل صفعة يصفعني إياها.. ومثلها لا تكون على الخدّ؛ بل تصيب القلب. وهكذا وجدّتُ نفسي مُجبرةً في اليوم التالي على إدخال القهوة لهم عندما أتوا لزيارتنا، عريس الغفلة وأمّه الشّمطاء.

كانت "حنين" هي الّتي استقبلتهم ريّثما حَضرَ أبي فأُعجِبت المرأة بها ونكزته قائلةً: فلنخطب هذه، إنّها أصغر وأجمل.

قال لها هامسًا: أمّي لم نأتِ هُنا للتبضّع، أتينا لنرى مَجد وتراني. فصمتتْ على مضضٍ ولم تكن راضية أبدًا، وقد ظنّت لمّا رأت وجهي الذّابل الشاحب وعيوني الحزينة تحيط بها دوائر بنيّة، وجبيني الذي جعل من الحَب لاجئًا عنده، إذ أنَّ بشرتي شديدة الحساسيّة وقد بان عليها أثر سجودي الطّويل أثناء قيامي الليل أصلي وأدعو ل"عمّار" بالشّفاء العاجل.

نحيلة الجسم، قليلة الكلام والانتباه على محدّثي، إنّني في الخامسة والعشرين من عمري، أيّ بمرحلة العنوسة في ديارنا. فعندما عرفتُ ما يجول بخاطرها

تقصّدتُ أن أُدخِل القهوة وأسلّم عليهم بوجهٍ عابسٍ لم أضع عليه من مساحيق التّجميل شيئًا، وبحجابٍ أخضر اللون، وكنزة صفراء وتنورة جينز عتيقة كانت مع بعض الملابس الّتي عزلناها لنرميها! باختصار كان (شكلي مبهدل)، وعلّقت "وتين" ضاحكة: مجد البسي تنورة حمراء لتصيري مثل علم الأكراد!

خَجِل أبي الذي لم يكنْ يتحدث إليّ، في حين حدّقت بي المرأة بذهولٍ... ولأنّني كنتُ أتقصّد كلمّا لمحتها بطرف عيني تحدّق بي أن أرفع رأسي نحو السّقف وأبتسم أو أعبس وكأنني أرى أحدًا هم لا يرونه وأنا ألعب بطرف شالي طوال الوقت، كادت أن تجُنّ! أتخطب لأبنها الذي دوّخ بنات القرية وزميلاته المعلّمات السّبع دوخات فتاة مُختلة مثلي؟!

قلتُ له: أنا لا أطيقُ الرّيف ولا أحتمل العيش فيه.

قال: أين تريدينا أن نسكن، إن أتمَّ الله هذا الزّواج؟

ـ في حيينا، بجوار بيت أهلي.

وجّهت والدته الكلام لأبي الذي عبس واكفهرَّ وجهه: ما هذا الكلام الذي نسمعه يا أبا المجد، منذ متى والبنات يضعنَّ شروط وآبائهنَّ حاضرين؟

ولكن قبل أن يجيبها قاطعهما حمزة قائلًا: أرجوكما دعوني ومجد نتفاهم فنحن مَن سوف يتزوّج.

ثمّ نظر إليّ وقال: لكِ ذلك، على كلٍّ كان في بالي مشروع الانتقال للمدينة منذ زمن طمعًا بدوام بعد الظّهر بالمعاهد الخاصّة، ولكن حتى تنتهي هذه الأزمة وتعود الحياة لطبيعتها وتُفتح المدارس سنعيش في بيتي هنا. وجدتُ في عدم الاتفاق خلاصًا من هذه الزيجة، فقلتُ بِعنادٍ:

لا؛ أنا لا أُزفُّ إلا من بيت أبي، مستحيل أن أتزوّج وأنا نازحة!

ـ لكنكِ تعرفين الوضع هنُاك ولا أحد يدري متى سينتهي قد يستغرق أعوام.

قلت بغير مبالاة وقد لاحَ لي بصيص أملٍ تعلَّقَ به قلبي تعلُقَ الغريق بالقشّة: هذا شرط.

ضاق أبي ذرعًا بما يسمع وكاد أن ينطق؛ ولكن الشّاب سبقه وقال لي وكأنّه يتحدّاني: لكِ ذلك، لا مشكلة.

بدا الانزعاج على وجهي، كيف سأتفاهم مع هذا المخلوق وأنا كلما وضعتُ عثرة أزاحها وعلى وجهه تلك الابتسامة المّستفِزّة؟ ولحسن حظه وسوء حظّي، ما كاد يمضي شهر ونصف الشّهر حتى هدأت الأوضاع وبدأ النّاس بالعودة لديارهم الّتي صارت خرابًا وكنّا من أوائل العائدين. دخلنَّ أخوات العريس وزوجات إخوته وهنَّ يزغردنَّ وتحمل إحداهنَّ صينية وُضِعَت فوقها قماشة حمراء ذات نقوش مذهبّة، مُلِأت ببتلات الورود

الملوّنة وتتوسطها علبتين أنيقتين يحملنَّ خاتمي الخطوبة. وقفَ "حمزة" والحضور جميعًا وأطلَّ أبي من الباب، وبحلقت كلّ العيون في وجهي الّذي بدأ يتلوّن، ويدّ حمزة الممدودة نحويّ تدعوني للوقوف. لكنّني؛ لم أقف.. لم أستطع أن أقف!

كان الموقف أصعب مما تخيّلت. تخايلتُ وجه "عمّار" الأبيض تعلوه ابتسامته المُحببة، تخايلتهُ في مكان "حمزة" يمدّ لي يده. تساءلتُ كيف سأُسلّم يمناي لهذا الغريب ليضع خاتمه في إصبعٍ ما خُلِقَ إلا ليوضع به خاتم "عمّار"..

لا؛ لن أقف.. فهذا الأصبع وأنا كلّي ل"عمّار"، فقط "عمّار".. شعرتُ بيدٍ باردة كالثّلج تضغط على يديّ، التفتُ فكانت "وتين" واقفة إلى يساري، انحنَتْ ووشوشتني قائلةً: "مَجد" كوني قويّة، أرجوكِ من أجل أبينا انظري إليّه. فنظرتُ نحو الباب لأصطدمَ بنظراتٍ تائهة، بعيونٍ لوّنَتْ بالرّجاء والقلق والحيرة. وكان أبي كما "وتين" على ثقةٍ أنّني سأرتكبُ حماقةً ما وأُخرّب هذه الزّيجة.. فوقفت.

لا.. لستُ أنا الّتي تُسوّد وجه أبيها وتسمح لابن امرأةٍ أن يطوّل لسانه عليه ويوجّه له إساءة ويُشكك بحسن تربيته لبناته! "وأويها وحصنتك بياسين، أويّها ويا زهر البساتين، وأويّها يا مصحف زغير، أويّها على

روس السلاطين" وتتبعها زغرودة جماعيّة، على الرّغم أنّ "الأويها" الشّاميّة لم تكن من عوائدنا في الجزيرة السّوريّة، نحنُ أهل الطّرب الحزين والموليّا؛ ولكنَّ قريباتي الجدد فاجئنَ الجميع وغنينها على سبيل المرح والتّجديد وأنهنَّ ذوات ظلٍّ خفيفٍ وألسنة معسولة لا يملُّ مَن يُجالسهنَّ، وحقيقة أذهلنَّ كلّ الحاضرات بإتقانهنَّ لها.

"وأويها أشي أشي، أويها والكعك المحشي، وأويها ونحنا بيت الرجب، أويها وبيلبقلنا كلشي"

"وأويها ويا مجد كوني من أمثالنا، وأويها وخلّي لسانك حلو مثل لسانا، أويها لا تكوني ردادت جوابات، أويها ولا تشمتي رجال العالم برجالنا".

"وأويها وبناتنا مخبايه، أويها ورجالنا مربايه، أويها وجهازنا ع الموضه، أويها سجاده ومراية"

وأتممت طقوس الخطوبة المعروفة وأنا أوجّه لهذه وتلك ابتساماتٍ زائفةٍ، فشعرتُ لحظتها وكأنّني مُمثلة تؤدي دور ما وتعمل جاهدةً على إتقان الشّخصيّة الّتي تلعبها.. وقد فعلتْ. اقتربَ والدي منّي، قبّلني من جبيني وهنأني وتمنّى لي دوام السّعادة وهو يُلبسني إسوارة جميلة كهدية الخطوبة. ابتسمتُ له ذات الابتسامة الزّائفة.

وعاد صوت الموسيقا ليصدح ومحمد عبده يغنّي "لنا الله"، والفتيات أوقفنني وحمزة، وشكّلنَّ حولنا حلقة وهنَّ يصفقنَّ ويغنينَّ مع عبده "لنا الله يا خالي من الشوق "

أمسك حمزة بيديَّ وراح يرقص ويُراقصني فضحكتُ في سرّي من سخرية القدر هذه. أنا أرقصُ هُنا في فستانٍ ورديٍّ، وفي إصبعي خاتم يربطني برجلٍ لا يختلف عن أيّ غريبٍ يمرُّ في الشّارع وحلويات وأغانٍ وهدايا. وهو هُناك، في تركيا مقيّدٌ بأجهزة طبيّة إلى سرير أبيض، في غرفةٍ باردةٍ يُصارعُ الموت.
"واتگلب على جمر الغضى واتگلب، واتذكر عهد مضى زمان شاغل الگلب" وكأنّه هُناك يأبى الرّحيل قبل أن يطمئن عليّ ويراني في العش الزّوجي وحياتي تسيرُ على ما يُرام.

"وبهذا أوصيكِ"، وها أنا ذا أنفّذ وصيتك فهلّا رجعتَ إليّ؟

"يوم كانَ الهنا عبدًا لنا لا تلوموني" وخالتي الحبيبة مرابطة هُناك عند باب غرفته، رباه كم تتعذّب الآن، وكم تعاني! وأنا هُنا ماذا أفعل، أرقص!

ضاقَ صدريّ "وتلطّف عساهم من جفاهم يرحموني"

أحسستُ بالاختناق، واللحظة الّتي كنتُ خائفة منها أتت، نال الحزن منّي وكاد القناع الّذي ألبسه أن يسقط

عن وجهي، فلم أعدْ قادرة على التمثيل أكثر، تركتُ يدّه... فتحتُ الحلقة وخرجتُ، أمسكَتْ إحداهنَّ بيدي وسألتني مازحة:

- إلى أين تهربين يا عروس؟

- إلى الحمّام.

أعزكم الله، كانَتْ هذه الحجّة أوّل ما خطر في بالي، وبدّت لي مُقنعةً بعض الشّيء. صفقتُ باب غرفتي خلفي بقوّة، وانسكبَ من عينيّ شلال دمعٍ فور اختلائي بنفسي وسجدتُ لله... وأفرغتُ ما في جوفي من ألمٍ بين يديّه المُباركتين في حفنة دموع، وليس على شفاهي سوى كلمة واحدة، اسم واحد..

أربعة حروف تختزلّ كُلّ ما بس من شقاءٍ..

عمّار.. آاااه يا عمّار! آهٍ يا وجعي كم أفتقدكَ! ما أبعدك وما أحوجني إليّك! عُد إليَّ يا سكينة الرّوح، عُد.

أخبرني يا حبيبي لماذا صدف أن نمت بذرة حبّنا بفوهة مدفعيّة، بظلّ بندقيةٍ، ببركة دمٍ! لماذا قُتل حبُّنا المحلّق في السّماء يتوسد الغيوم ويُسابق أسراب الحمائم والفَراش برصاصةٍ طائشة؟ لماذا الحرب لم تُنقذ الحُبّ عندما انهالَتْ على البلاد وقلوب العباد تدميرًا؟ لماذا الرّصاصات في جسدك والألم في جسدي؟!

أنتَ أغمضتَ عينيكَ هُناك، وأنا لم أعُدْ أُبصرُ شيئًا هُنا!

أخبرني، أعدلٌ أن تكون الآن على سرير الموت تنازع بدل أن تكون جالسًا في مدرّج الجامعة تُعَدُّ لتكون معلمًا تزرع في قلوب الطّلاب نورًا يستدلّون به على طريقهم في الحياة، بدل أن تكون جالسًا بجواري تُلبسني خاتم الخطوبة؟ أعدلٌ أن أجلس في يوم خطوبتي بزاوية غرفتي أبكيك بحرقةٍ وفي جوف قلبي ألم، وقهر، وقلق لو أظهرتُ مثقال ذرّة منه لأبكيتُ كل مَن في البيت، وأبكي، وأبكي، وليس في يدي إلّا البكاء! أعدلٌ أن تجعل منك هذه الحرب اللعينة وجعًا لقلب خالتي الطّيبة، وجالبًا حزنها عليك المرض لجسدها؟ أخبرني لماذا أُحرَمُ منكَ أنا الّتي لم أُرِد من الدّنيا إلّاك؟

آه يا وَجعي.. أخبرني كيف أُفهِمُ هؤلاء المحتفلين في الخارج أنّني أحترق، بركانٌ يغلي في شرياني، وفي عقلي فوضى عارمة أكادُ أُصابُ منها بالجنون. أمّا قلبي فجاثٍ بجوار سريرك يحتضن كفّك، يتوسلك أن تستفيق، يقبّل شامتي رقبتك، يشمُّ رائحتك فيدوخ وإنّها الخمر الوحيد الذي يُفقِده رشده! أتدري.. ما الشّيء المُضحك المُبكي في كلّ هذا؟ إنّني هُنا؛ ولكن يتعذّر عليّ حضور خطوبتي. أنا الحاضرة الغائبة، أنا الّتي جسدي معهم يرقص وروحي معك تحتضر. دخلَتْ "حنين" وشهقت لمّا رأتني بتلك الحال، أغلقت الباب خلفها بالمفتاح خشيةَ أن تُداهمَ الغرفة إحدى قريبات

العريس وترى ما تراه. فتصيرُ فضيحةً وأقعُ فريسةً لألسنة النّسوة فيُلصقنَّ بي عشرات الافتراءات.

ـ مجد كُفّي، ارحمي نفسك، لا يجوز ما تفعلينه!

ـ إنّني مُتعبة يا أُختيّة، قلبي يتمزّق كلّما فكرتُ أنّه هناك يموت.

احتضنتني فور نهوضي من السّجود وهي تقول:

ـ إلى متى هذه الحال، أسابيع قليلة وتصيرين على ذمّة رجل آخر، فهل ستجلسين هناك جلستُكِ هذه وتبكين عمّار؟ والله ليُرجعكِ إلى أبيكِ فما من رجلٍ يطيقُ هذا!

ـ فليمُت، فليذهب إلى الجحيم، لا أُبالي به، أريدُ "عمّار"، أريدُ أن أراه لمرّة واحدة، فقط مرّة يا "حنين"..

لكنّني لم أره، و"حمزة" لم يمت ولم يذهب إلى الجحيم، أنا الّتي بعد ثلاثة أيام قادتني زبانية القسمة والنّصيب وألقت بي في جحيم الزّواج.

الفصل الخامس

بعد أسبوع من الزّفاف، في زيارتي الأولى لأهلي، عند الباب استقبلتني وتين وكم كانت سعيدة وهي تزف لي آخر الأخبار:

ـ مجد أُبشّرك سيتم عقد قِران "حنين" وتبن عمتي الأحد القادم وسأتخلّص منها ولله الحمد!

ابتسمتُ ببرود وأنا أقول لها: مُبارك إن شاء ال...

قاطعتني: فلتسمعي الخبر الثّاني، لقد أخرجوه من العناية المشدّدة، اتصلَتْ هنادي وأخبرتني أنّه استفاق من الغيبوبة.

ـ عمّار، أعي...أعيدي ما قلته رويدًا رويدًا، كلمة كلمة؟

ـ نعم؛ لقد نجا، استجاب الله لصلواتك!

سجدّتُ لله شاكرةً ولم أنتبه من فرط سعادتي أنّي اتجهتُ شمالًا، وأنا أبكي وأضحك في آنٍ واحد، شعرتُ

وكأنّ كلّ شيء حولي يرقص فرحًا وابتهاجًا! الباب، الحائط، شجرة الليمون، شتلات الورد خزانة الأحذية - أعزكم الله- الكراسي، وتين الجاثية بقربي وحنين الواقفة خلف نافذة المطبخ وكلتاهما تبكيان، وقلبي الذي كادَ يكسر عظام قفصي الصّدري من شدة ما قفز! رباه؛ كم ألف عام من الشّكر أحتاج لأوفيك حقّك يا إلهي العظيم! يا إلهيّ الرّحيم! وأخيرًا أنا في حالة سلام.

لقد نجا، وهذا كلّ ما أردته، ولم يكن سوى وجوده في العناية يُنغّص عليَّ عيشتي.

تفتحتْ بشرتي، وغمرت السّعادة مُحيّاي، وعاد قلبي يضخُّ الأمل إلى عروقي الّتي جفّت منذ أن دخلتْ تلك الرّصاصات الثّلاثة في جسد عمّار. لم يكن وحده الذي دخل في الغيبوبة فكذلك كنتُ أنا. وليسَ وحده الّذي عاد للحياة وكذلك أنا.

فإنّي وإياه بُعثنا بعد ممات، وولدنا من جديد، وما أجمل العودة للحياة وللأهل والأحبة بعد زمانٍ طويل.

عُدّتُ أضحك، أمزح، ألبس ،أتزيّن، أطبخ، أُعِدُّ الحلويات ولا يفارقني النّشاط وكذلك الفرح. وكان "حمزة" في غاية السّعادة معي والرّضا عنّي، وإنّه لرجلٌ ناضج، شهم، ودود، لم يكن يُعيبه شيئًا، ولم يكن ينقصنا لنكون أجمل زوجين سوى أن يحتضنه قلبي

الأحمق ويهيم به. ولكن كيف السّبيل إلى ذلك و"عمّار" جالس في وسطه وموصّدًا الشريان على نفسه، لا يرضى الخروج ولا يسمح لأحدٍ بالدّخول؟!

وكذلك كانت "حماتي" قد غيّرت رأيها بي وبدأت أروق لها، وسرعان ما صِرتُ الكنّة المفضلة عندها وتتفاخر بي في كلّ مُناسبة أمام قريباتها وجاراتها. كان هذا الخبر الّذي غيّر حياتي آخر ما عرفته عن الحبيب، إذ أنّ "هنادي" وأهلها قد رحلوا عن الدّيار إلى تركيا بحثًا عن لقمة العيش وهربًا من الرّقة الّتي صارت ساحة للنزاع، كُلٌّ يريد فرض سيطرته عليها. الجيش الحرّ من جهة والأحزاب الكرديّة من جهة، وجبهة النُصرة من أخرى، وبقايا قوات الاسد المحاصرة في آخر ثلاث مواقع عسكرية لهم (الفرقة17 و اللواء93 ومطار الطبقة العسكريّ). وأخيرًا الدولة الإسلاميّة الّتي كانت أولى إطلالاتها على السّاحة وقد دخلتْ النّزاع لتوّها؛ ولكنّها ما لبثت أن فازت بالرّقة وقد جعلتها عاصمة لها بعدما أعلنت عن قيامها.

لم يكن يهمني كلّ هذا، وحده الجنين الذي بدأ ينمو في أحشائي كان يهمّني، وإن كان حملي ضعيفًا فأملي بالله قويًا!

وإن كنت و"عمّار" قد مضى كلٌّ منّا في سبيله وترك فراقه فراغًا شاسعًا في قلبي فكان يكفيني أنهُ حيٌ

وبخير. تبتُ إلى الله وعاهدته أنّني سأكون وفية لزوجي، ولن أعود للخطايا والحرام. وما ذنوبي وخطاياي إلا حُبًّا في الجوف لم يستطع أن يوقف تدفقه عقد زواج على ورق. وقطعتُ في تناسي "عمّار" شوطًا كبيرًا رغم مُلاحقة الذّكريات لي.

عصف الشّوق في بعض الأيام بشرايين قلبي عصفًا، حتى أن حمزة دخل عليّ يومًا ووجدني أحملُ بيدي كيس أرز وأبكي بحرقةٍ. سألني مُتعجبًا: ما بكِ؟

أجبتهُ وأنا أرمي بالكيس على الطّاولة بغضبٍ، وأخرج: هذا الأرز سيئًا!

قال مُتعجبًا: أتبكين لهذا السّبب؟!

هذا ما ظنّه ولم يدرِ أنّه كان مكتوبًا على الكيس "أرز عمّار"، لم يدرِ أنني قبلتُ رسم ذاك الاسم عشرات المرات، وضممتهُ إلى صدري وحدثته عن اشتياقي وصبابتي، وسألته أن يخبرني كيف أُمضي كلّ حياتي دونه. كلّ هذا قبل أن أمطره دمعًا حارًا، لم ينشأ في المقل ولكن في القلبِ الملتاع!

وهكذا حتى تلك الليلة... الخامس من أيلول الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. قصفتْ الطّائرة ولم يكن أكثر رعبًا من صوت الانفجار الّذي تُحدثه إلّا صوت صفيرها، إنّها الموت المُحلّق كلّما أقبلت تلتها قافلة شهداء إلى السّماء وظلّت على الأرض خلفها كارثة.

كان الانفجار قريبًا جدًا حتى خُيّلَ إليَّ وإلى "حمزة" أنّه في حارتنا، اهتزّت البيوت وملأ الغبار المكان، واستيقظت البيوت وأهلها، واشتعلت الأضواء وضجَّ الجوّ، وبكاء وأصوات رنين الهواتف وتساؤلات "أين قصفت؟" ركض حمزة إلى السّطح ووضعتُ شالًا على رأسي في عجلٍ وتبعته، فكانت الطامّة الكُبرى! كانت المجزرة في..

يا ويلي.. يا ويلي؛ أهلي!

نزلتُ درج تلك البناية الّتي كان يشغل بيتي الطّابق الثّالث بها ركضًا دون وعيٍّ وكلّ درجتين وثلاث درجات في خطوّة. عبرتُ الشّوارع الثلاثة الّتي تفصل بين الحارتين، حيث أسكن وحيث يسكن أهلي بأقصى سرعة عندي، في "البيجامة " حافيةً، سافرة الرّأس فلا أدري متى وقع الشّال عن رأسي ولم أشعر به. دخلتُ الحارة والعرق يتصببُ منّي وساقاي ترتجفان وبالكاد ألتقط أنفاسي، كان حلقي جافًا وعيوني مصدومة ممّا تراه وقد تحوّل نصف الحارة إلى أكوام تراب، والنّاس تصرخ وتبكي وبعضهم يلعن ويشتم وآخرون كُثُر اعتلوا أكوام التّراب يبحثون تحت الأنقاض عن ناجين، وسيارة إسعافٍ حُمِّلتْ ومضتْ، وسيارات كثيرة تزاحمت عند مدخل الحارة ومن بينها سيّارة تابعة للدولة الإسلاميّة نزل منها خمسة رجالٍ

كان بعضهم مقنّعين. لم أعد أميّز من هول المُصيبة أهل حارتي من الغرباء، باتَ الكُلّ في عينيّ وكأنّهم خيالات وظلال تتحرك دون توقف تدور حولي، وأنا أتقدّم ببطء بخُطىً ثقيلة، وعيوني تُبحلق بركامٍ كان قبل عشر دقائق بيت يسكنه أهلي.

- إتقي الله يا أختي!

كان رجلًا من ذوي اللحى، يلبس زيًّا أفغانيًا ويحمل سلاحًا، يتحدّث بالفصحى، قد اعترض طريقي وكان يبدو أنه غاضبًا منّي. حاولتُ جاهدة التّركيز على ما يثرثر به ففهمتُ بعد تركيزٍ مُكثّفٍ أنّه يسألني عن لباسي الشّرعيّ، ولماذا خرجتُ من بيتي بهذا الشّكل؟ ثمّ راح يصرخ: مَن ولي أمر هذه المرأة؟!وفجأة ظهرَ العم "أحمد" ذاك الرّجل الستّيني، الشّهم، صاحب بقاليّة الحارة من قبل أن أوّلد، وقف بيني وبين الدّاعشي وراح يصرخ بوجهه، دعها وشأنها، لقد مات أهلها فمن أين ستأتي بعقلٍ يُفكّر باللّباس والحجاب الآن؟ دعها ساعدها الله وكان في عونها فيما ابتلاها. اذهب للبحث عن ناجين، أليس ذاك أنفع؟

"أحقًا مات أهلي! " أم أن العم قال هذا الكلام ليُخلّصني من بين يديّ الدّاعشي الذي ما كان لينفك عنّي دون تسليمي إلى الحسبة لتتمّ معاقبتي؟ أي كابوسٍ ما أنا به؟

كان الألم يشتد أسفل بطني، وجسدي بأكمله يرتجف ولا زال العرق يتصببُ منّي. واصلتُ سيري وخلفي بقي العم والرجل يتشاجران. وقفت على أطلال البيت وفي حَلقي صرخة مكتومة، أحاول أن أناديهم فكانت تخرج أسمائهم من بين شفاهي اليابسة بصوتٍ مبحوح مخنوق: أبي، حنين، وتين.

لمحتُ رجلًا طويل القامة خرج من خلف الرّكام مُغطًّا بالتّراب، صاح: لا حول ولا قوّة إلّا بالله. إنَّا لله وإنَّ إليه راجعون.

وجلس القرفصاء مُتكئًا على بقايا حائط واستسلمَ لنوبة بكاء. وكان ذلك الرّجل أحد جيراننا وقد رأى بين ذاك الحُطام ما تبقّى من جسدي أُختيَّ، فانهارَ من هول ما رأه. شعرتُ بالدوّار، وصار الألم في بطني لا يُحتمل، وقعتُ على الأرض وقد بدأت أفقد وعيي، وبدأت الأجسام من حولي تتلاشى، والضّجيج يخفت، والسّواد يبتلعني رويدًا رويدًا.

ركضَ أحدهم نحوي، كان مُلثمًا بكوفيّة، حدّقَ بوجهي للحظة ثمّ استدارَ وصرخَ على رفيقه قائلًا: حسن؛ شغّل السيّارة. ثمّ حملني بين ذراعيه وركض! كان صوته يشبه... ورائحته كأنّها..!وابتلعني السّواد ولدقائق ظلَّ في أذني صوت الملثم وفي خياشيم أنفي رائحته، ثمّ ساد الصّمت والظّلام لوقتٍ لستُ أدري كم مضى منه،

حتى صحوت إثر صفعاتٍ مُتتالية على وجهي وماء بارد غُسِلَ به، وألم حاد يكاد يفتك بِرُحمي فحتى جنيني -كما عائلتي- يريد أن يغادرني!

بالكاد فتحت عيوني فوجدت نفسي بين أحضان "حمزة" في المقعد الخلفي، بسيارة مسرعة كان الرجل الملثّم يجلس بها إلى جوار السّائق.

سأل المُلثم حمزة: ـ هل ماتوا جميعًا؟

للحظة شعرتُ أنني أعرف هذا الصّوت، أعرفه جيّدًا وأحبّه كثيرًا؛ ولكن لم أتوقف عند الصّوت بل عند السّؤال.

أجاب حمزة:

ـ لا... الحمد لله نجا والدها بمعجزة.

رد الملثّم:

ـ الحمد لله.

خفق قلبي بعنفٍ وتحرّكتْ شفاهي وصرخت من غير صوتٍ: "عمّار"، وصدق حدّسي، وفقدتُ وعيي مُجددًا.

تمّ استدعاء "حمزة" من قِبل الدّولة الإسلاميّة بعد عودته من زيارته لأهله في قريتهم الخاضعة لحكم الجيش الحر والأكراد، وحُبسَ على ذمّة التّحقيق

لمدّة 24 ساعة، وقد تمّ اتهامه بالتّعامل مع الجماعات الأخرى وتسريب المعلومات لهم. وبحمد لله تمّ الإفراج عنه دون أن يثبتوا عليه شيئًا.

ولكن لم ينتهِ الأمر عند هذا الحدّ، فما كادت تمرّ ثلاثة أيامٍ حتى رنَّ الهاتف وكنّا نتناول العشاء، عشيّة يوم بارد، قام حمزة وأجاب:

ـ ألو... أهلًا كيف حالك؟

تلاشت الابتسامة وغطّى العبوس وجهه وهو يقول: نعم.

صامتٌ بقي لوقت طويل يستمع إلى محدّثه ثم سأل: لماذا؟

والواضح أنّه أجابه، فقال: ـ مفهوم، نعم دون شك، جزاك الله خيرًا إنّني مدينٌ لك. وأغلق سمّاعة الهاتف وسط ذهولنا أبي وأنا، ومضى إلى غرفة النّوم وهو يقول: عليَّ مغادرة الرقّة الآن. هرعتُ خلفه ولحق بي أبي:

ـ لماذا؟ مَن كان المتصل؟ إلى أين سوف تذهب؟.

أجابَ وهو يضع حقيبة صغيرة على حافة السّرير وكان متوترًا كما لم أره يومًا: صديقٌ قديم منتسب

للتنظيم، أخبرني ألّا أبيت اليوم في البيت وإن استطعت مغادرة المدينة فهذا لأفضل، لا أدري كيف ولكنّهم أثبتوا عليّ التّهم والآن اسمي ضمن قائمة المطلوبين!

لم تكن سوى دقائق وضع بها بعض حاجيّاته الضّروريّة في الحقيبة وأمنّ أبي عليّ وودعنا ومضى إلى القرية حتى يرى ما سيفعل لاحقًا بشأن هذه المُصيبة. وفعلًا لم تكن سوى نصف ساعة حتى كان عناصر من التّنظيم أمام باب البيت يسألون عنه، فلمّا طلبوا أن يفتشوا البيت أدركنا أن الأمر أكبر من تصورنا. لم ينم أبي من الليل إلّا قليلًا، مشغول البال على صهره ويضرب أخماسًا بأسداس، خائفًا من أن يكونوا قد أمسكوا به على أحد حواجزهم. وهكذا حتى طلع النهار وشارفت السّاعة على التّاسعة وفُتحت محلات النت وهي البوّابة الوحيدة المتبقيّة للناس التي تصلهم بالعالم الخارجي، سارع بالاتصال ب"حمزة" الذي كان ولله الحمد قد وصل أهله بسلام، وأخبره بتفتيشهم للبيت وطلب منه التوجّه فورًا إلى تركيّا قائلًا له:

- هؤلاء إن أرادوك حقًا لن يصعب عليهم الوصل لقريتكم ولا إلى أي مكان في سوريا قد تقصده.

ففعل "حمزة" ما قاله له وتناول طعام الغداء في سوريا والعشاء في تركيّا، وكان العبور إليها من أهيّن ما يكون. ورحل "حمزة" رحلوا جميعهم، وبقيتُ وحدي أُصارع غيابهم، أناجي صورهم، أحدّثها وأبكيهم. رحلتْ "وتين"، صغيرتي الخجولة الّتي كانت تنتظر زفاف "حنين" بفارغ الصّبر ليخلو لها حضن أبينا، وتنعم بدلاله دون شريك، ولترث ملابسها وحاجيّاتها وكلّ الأشياء التي كانت تثير بينهما جدالًا طويلًا قد يتحوّل أحيانًا إلى اشتباكاتٍ عنيفةٍ تصلّ إلى شدّ الشّعر والقرص والعض. وكم غارتْ -رحمها الله- عندما حَبِلتُ وقد أغدق صدرها الحزن، فلمّا سألتها عمّا بها! رمتْ بنفسها في حضني وبكت وهي تقول لي أنّها المرّة الأولى الّتي تشعر بها باليتم، وأضافتْ: "مَجد"؛ لا أحتمل أن أراكِ أُمًّا لغيري!

فأشفقَ الله على قلبها الرّقيق وأوقف نبضه قبل ترى صغيرًا في حضني. وحنين.. آاه يا حنين!

عن "حنين" أُحدّثكم، عن تلك العروسة السّعيدة الّتي كانت تنام وتصحو على حلم ارتداء الفستان الأبيض ودخول العش الزّوجي، لكنّها ارتدت بدلًا منه كفنًا ودخلت قبرًا، رحلتْ قبل أن أفرح بها

وتفرح هي بشبابها، ولا تزال تلك الملابس والأغراض الّتي نوت أن تشتريها عندما تبدأ بالتّجهيز معروضة في واجهات المحال التجاريّة. فيا أيّها الباعة، أخفوا بضائعكم عن عيوني فالعروسة ماتت وهذي العيون تقع أسيرة في سجن الدّموع كلّما وقع بصرها على بضائعكم المعروضة للفرجة، تستفز حنيني وترسم أمامي وجه حنيني. وكلّ ذكرى لي معهما تحوّلت بعدهما لمشنقة تُعلّق عليها روحي الحزينة.

وجنيني المُنتظر راح رفقة خالتيه ليفتح لهما أبواب الجنّة وتركوني جميعهم في جحيم الاشتياق لهم احترق. و"عمّار" اختفى مُجددًا، حتى أنّه لم يعد للاطمئنان عليَّ بعدما أوصلني للمستشفى. لستُ أدري كيف ظهر؟ كيف رحل؟ حتى يُخيّل إليَّ أحيانًا أنّني كنت أتخايل ولم يكن ذاك الملثّم هو؛ ولكن من المستحيل أن تخونني حواسي في التّعرف عليه!. أيًّا كان فهو لا يغيّر شيئًا من حقيقة أن ظهوره مجددًا في حياتي حرّك زوابع الحبّ بداخلي حتى صارت أعاصيرًا، وشوقي له اخترق أسوار حزني المتينة وشق طريقهُ إلى فؤادي

المُتعب فاحتضنه، سانده في محنته، شتل به بذور الأمل وراح يسقيها.

كلّهم رحلوا...
آهٍ أحبتي
"وترحلون...
ويبقى نبضنا المجنون
شريدًا في العروق القاحلة
يبكيكم على أطلال الذّاكرة
ويسأل الطّير المسافر عنكم والهتون
وترحلون...
ويبقى القلب منتظرًا
هو الدّمعة العصيّة
وغصّة في الجوف خفيّة..
في شرفات المواعيد
فوق حُطام الوقت

وجثث السّاعات المقتولة في مديّات الفراغ
متأنقًا... مُزمَّلًا بالسكون
حالمًا أن يغزو عطركم المكان
عابرًا كلّ المستحيلات
حاملًا أشواقًا نديّة..
يسقي بها رويحتي الذّابلة
لتعود وردًا في ظلال حبّكم يتفتح
خائفًا ألّا تجيئون..
خائفًا ألّا تتذكرون
إنّها مشدودة بحبل الانتظار رقابنا
وتحت أقدامنا آمال هشّة..
لا تحتمل ثقل العشق في قلوبنا
وخائفون نحن...
جدًّا خائفون
وترتجف الشِّفاه الخاملة
وتلفظ بعد مخاض صمتٍ عسير
بضع حروف

يدنو المساء...
تهمس في أذنه قائلة:
"أويعودون؟!"
يجفف المساء عَبرته بطرف عباءته
ويكتم الزّنبق شذاه إشفاقًا
ويتوجع النّجم البعيد..
ويصيح من عليائه مقسمًا:
أنَّ الحنين ليرجعنّكم إلينا
ولو بعد حين.
لكنكم لا ترجعون
لا ترجعون..!

لم يتبقَ لي إلّا أبي! وكلانا منهار، كسير القلب، معطوب الرّوح، متعب ويدّعي القوّة والثّبات. كلانا مُتصدّع متهشّم ويقلّد الأشخاص الطّيعيين الأسوياء المُتعافية أرواحهم في تصرفاتِهم وأقوالهم، ويعمل جاهدًا على إقناع الآخر أنّه بخير. مرّت ثلاثة أشهر على الحادثة، لا نزال كلانا خارج حدود الاستيعاب، لا

نزال نعيش ضمن إطار الصّدمة وتحت مخدّرها، لم نصحو بعد ونقتنع أنهنّ حقًا رحلنَّ، ولن نراهنّ ولا نسمع ضحكاتهنّ مُجددًا. كنتُ أعرفُ أنّه كان كلّ يوم عندما يذهب إلى الفرن لإحضار الخبز يمرُّ بالحارة يقف أمام حُطام البيت مُتأملًا، وأحيانًا يتسلقهُ ويبدأ بإزاحة ما يستطيع إزاحته باحثًا عنهنَّ. كان الغبار والتّراب الّذي يبقى مُلتصقًا بملابسه يخبرني بكلّ شيء. وهوَ أيضًا كان يعرف أنّني كلّما اشتدَ بي الشّوق إليهنَّ أحمل الهاتف وأذهب به إلى مخدعي فأركّب رقم هاتف البيت وأحاول الاتصال بهنَّ، وأحيانًا أكلمهنَّ.

ولكن كلانا كان يتجنب إخبار الآخر بما يعرفه وبما يعانيه. وكيف وكلٌ منّا يظن أنّه بات مصدر القوّة للآخر؟ اتصل حمزة بعد أيام من وصوله إلى أنقرة وأخبرنا أنه سيهاجر مع بعض رفاقه إلى ألمانيا، وطلبَ أن أُجهز نفسي، وأخبرني أن أخيه أحمد سيأتي ليقلني غدًا إلى الحدود، حيث سينتظرنا هُناك في مكان يعرفه أحمد صديقه وعائلته لأسافر برفقتهم وألحق به مع الدّفعة الثّانية. كان قد نظّم ورتبَ كُلّ شيء واتصلَ بهذا وذاك ونسقَ بين الجميع، وقرر ونفذ دون أن يأخذ رأيي أو حتى يُعلمني بالأمر. قلتُ له بانزعاجٍ: أنا لن أهاجر ... لن أترك أبي وحده.

ردَّ بغضبٍ: إذًا تستطيعين البقاء مع أبيكِ.

شعر أبي بأنّ حياتي الزّوجيّة على وشك الانهيار بسبب رغبتي بالبقاء معه وعدم اللحاق بزوجي، فأخذ الهاتف من يدي وقال لِ "حمزة" أنّني سأكون جاهزة غدًا للرّحيل. وأمضى بعدها ساعة يأنبني على الطّريقة الّتي كلّمت بها زوجي، وأمرني بطاعته، وراح يقنعني بإن السّفر أفضل لنا وأن حمزة اختار الخيار الصّحيح فمادام قد قُدِّرِ على المرء الاغتراب، فلا عيب في أن يطمح في حياة أفضل.

ـ تعالَ معنا، فإن كنتَ معي لن أبالي حتى لو رحلتُ إلى آخر بقاع الدنيا.

ردَّ مبتسمًا: بُنيّتي إنّني كشجرة مُتجذرة في هذه الأرض وإن غادرت جذوري سأموت، ثمَّ أنكم أنتم الشّباب تستطيعون التّأقلم مع بيئاتٍ جديدة وأناس جدد، وتعيشون نمط حياة مختلف أمّا نحن فلا نقدر.

وضّبتُ حقيبتي على مضض وقد استسلمتُ كارهة لرغبتهم، وفي ضحى اليوم التّالي صعدتُ إلى سيارة أحمد وجلست في المقعد الخلفي، بينما جلس أبي بجوار سائقها وقد أبى إلّا أن يرافقني حتى الحدود.

كانت أول مرّة أخرج فيها من بيتي بعد الحادثة، لا أدري كيف استطعتُ البقاء في ذات المكان كلّ هذه الأيام. ثلاثة أشهر لم أخرج من بيتي، لم أزر أحدًا، لم

أصل سوقًا، لم أفعل شيئًا سوى الحزن؟ رباه كيف استطاع الحزن أن يستحوذ على وقتي كلّه!

كيف لم أزرهنَّ ولا مرّة واحده؟ كيف سأغادر البلاد دون توديعهنَّ؟

- أحمد.. أرجوك خذني إلى أمي وأختيَّ. قلتُ.

أبدى أبي اعتراضه قائلًا أنّه لا فائدة تُرجى من البكاء على كومة تراب وأنّ الدّعاء لهنَّ أفضل، وأضافَ أن هؤلاء القوم لا يحبذون زيارة القبور وخصوصًا للنساء وخاف أن يروني فيفتعلوا لي مشكلة أنا في غنىً عنها.

لكن أحمد تدخل قائلًا لأبي: دعها تزرهنَّ وإلّا بقيت حسرة في قلبها ستندم عليها كثيرًا وهي في تلك البلاد البعيدة. ومضى بنا حيث يرقدنَّ الغاليات، نزلت من السيارة لوحدي وقد رفض أبي مرافقتي قائلًا: سننتظرك هنا لا تتأخري.

شعرتُ بالقشعريرة وأنا أخطو أوّل خطوة داخلها، كانت كبيرة ولم يكن بها أي زائر ليس إلّا الحارس ذو الستين عامًا جالسًا عند بابها الثّاني الواقع في جهة الجنوب، وقد أشعل بعض الحطب في تنكة ووضع فوقه إبريق شاي، كان الجو غائمًا كليًّا والمطرعلى وشك الهطول، وكانتا حبيبتيَّ في قبرٍ واحد، إذا لم يبق ذاك الصّاروخ من أجسادهنَّ إلّا القليل، ورغم أنَّ هناك فسحة خالية شمال قبر والدتي؛ ولكن رفض أبي أن

يدفنهنَّ إلّا جنوبها رغم ضيق المكان وأراد بذلك أن يكنَّ في حضنها وأمام عينيها، فشعوره أنهنَّ برفقتها وبالقرب منها يُشعره بالطمأنينة فإنّه حتى بعد مماتهنَّ ظلّ خائفًا عليهنَّ. سلّمت عليهنَّ وعلى جميع الموتى وقرأت سورة الفاتحة على أرواحهم ثمّ ارتميتُ بجلبابي ونقابي وعبائتي الفضفاضة وقفازاتي وانكساري وضعفي واشتياقي في حضن أمّي أنتحب.

وبقيتُ على تلك الحال ما شاء الله لي أن أكون.

بقيتُ حتى أفرغتُ جُلّ ما في جوفي من حزنٍ وحسرات. حتى أمتلأ رأسي بالصّداع والألم والفوضى.

حتى حطّت تلك اليد على كتفي وجاء ذاك الصوت المُحبب يقول لي: إنهنَّ في الجِنان... نحن مَن يُبكى عليه.

لم أكن في حاجة لألتفتْ لأعرف مَن محدّثي؟ وكيف أشك في حواسي وقد ابتسم قلبي مذ سمع ذاك الصوت.

سألته: أرجعتَ؟

ـ ما غادرتُ يومًا كي أرجع، إنني دائمًا هنا، معك.

ـ كيف عرفتَ أنني هنا؟

ـ لديَّ مخابرات في حارتكم يعملون لصالحي في التجسس عليكِ، أخبروني أنك خرجتِ من البيت فتبعتكم حتى هنا. نهضتُ والتفتُ إليّه لتلتقي عيوننا في

نظرة لو كتبت عنها كتابًا كاملًا سيكون قليلًا وليس إلّا موجزًا قصيرًا عنها. كان يجلس القرفصاء على بُعدِ شهقة حب ودمعة فرح وغصّة شوق منّي، وبيني وبينه عشرات السنوات الضوئية من الحزن المرير.

بكنزة عسلية اللون ثخينة، وبنطال أسود مزموم من الأسفل، يحمل جيوبًا كبيرة، وقبّعة سوداء ينحدر من تحتها شعره الناعم وقد طال كثيرًا حتى صار يلامس كتفيه، وذقنٌ زادت ذاك الوجه المدوّر هيبة وكان اكتساب بشرته لبعض السُمرة قد زاد من جمال وجهه أضعافًا. إلّا أنَّ ذاك النُحلُ الّذي كان عليه وذاك الجرح الّذي شق جبينه وكان ظاهرًا بعضًا منه ولا أدري ما تحت القبّعة وأكاد أجزم بأنَّ ما تخفيه الثياب أعظم، كل هذا أصاب قلبي بالضيق . انتبهتُ إلى نفسي فتوقفتُ عن التّحديق به بتلك النظرات الفاحصة، الثاقبة، المجنونة وسألته: مَن جواسيسك؟

أجاب ضاحكًا: صبيان الحارة.

وأضاف مازحًا: أولاد الحرام لقد نهبوني، إياكِ وإفشاء سرّك لطفل فإنك تضعين رقبتك في يده، أتصدّقين اتصل بي أحدهم أمس وهددني قائلًا: إمّا تعطيني الآن خمسمائة ليرة أم أذهب إلى العم حمزة وأخبره عنك وعن العمّة مجد، فأعطيته ما أراد! اسمعي؛ أنتِ مدينة لي بخمسمائة لقد أنقذتك من مشكلة.

ابتسامة ضئيلة وقفت على شفاهي وظهر ظلها في عيوني، ولم يكن باديًا له شيئًا من جسدي إلّا عيوني، فإذ به يقترب ويرفع النّقاب عن وجهي ليقبض على تلك الابتسامة؛ لكنّها كانت قد تلاشت ولم يتبق لها أثرًا. قال إثرَ أوّل نظرة تفرّس بها وجهي الذّابل: لا زلتِ جميلة! تجاهلتُ قوله الذي أشك في صحته ولا أظنه إلّا مجاملة. وهممت لإنزال النقاب على وجهي خشية أن يرانا أحد، لكنه أمسك بيدي ومنعني قائلًا:

ـ بربّك دعيني أرتوي منه قبل أن تواريه النّقاب.

ـ أخاف أن يروننا، والله لنتصدّر عناوين صحفهم في الغد " حب وغرام في المقبرة" والأفظع أنّ الفتاة على ذمّة رجل آخر. والله ليعلّقونك على "الساعة"، وليرجموني عند "دوّار الجحيم". والسّاعة ودوّار النعيم ـ أو ما أسموه الناس بدوار الجحيم، عندما بدأت الدّولة الإسلامية تعلّق على قضبانه الرّؤوس البشريّة- أماكن معروفة في مدينتي.

ابتسمَ لقولي ولم يعلّق عليه ولكن سألني: كيف حالكِ؟

ـ كما ترى.. وأنتَ؟

ـ تنقصني ابتسامتك لأكون بأفضل حال.

ثمّ أضاف وهو يجلس على الأرض وكانت ساقه قد آلمته بسبب طول جلسته الأولى، تلك السّاق الّتي كان

لها نصيب من الرّصاصات الثلاثة. رباه كم مضى على آخر مرّة رأيتها فيها؟ منذ متى لم نرَ بعضنا!

قاطعتهُ: سنتان إلّا ثلاثة أسابيع.

نظر إليَّ بتعجّب وردّ مبتسمًا:

ـ يا الله النساء! لا أدري أي متعة تجدنها في حساب الأيام والشهور؟

ـ كل مُحبٍ مشتاق سواءً أكان رجلًا أو امرأة سيحسب أيام الفراق يومًا يومًا، ربما هذا ما يفسر عدم معرفتك كم مضى على آخر لقاء لنا.

ـ كأنك تقومين بقصفي؟

ـ لم أكن يومًا ممّن يقصِفون، لطالما كنتُ الهدف الذي يتمّ قصفه من كلّ الجهات.

ـكُلُنا قُصِفنا يا مجد، ليس بنا مَن لم تُحطّم روحه.

أشحتُ بوجهي عنه وسألته وكأنّني مذنب خَجِلٌ مما فعل: ـ ألن تعاتبني لأنّي تزوجت؟

ـ لم تفعلي إلّا الصواب، والخير فيما اختاره الله لكِ. ويبدو لي زوجك رجلًا طيبًا.

نظرتُ إليه وقلتُ بانزعاج:

ـ لكنني عاهدتُك أنني لن أكون لسواك وخنتُك، وأكثر من هذا أتدري متى تزوجت؟ دعني أخبرك، تزوجت في

تلك الأيام التي كنتَ تموت بها. أنا حتى لم أنتظر حتى يُقرر مصيرك إمّا حي أم ميّت.

ـ هوّني عليك مجد، أنا لستُ بعاتب. وقد سُررتُ عندما علمتُ بزواجك.

ـ سررت!

ـ أجل سررت.

ـ أأفهم أنني كنتُ عبئًا على قلبك ؟

ـ ما هذا الكلام؟ ما بالكِ تفسرين كلامي خطأً، وأنتِ تدرين أنك ما كنتِ يومًا إلّا حياة لقلبي؟

ـ حياة لقلبك! إذًا لماذا أنا الآن مع رجل سواك؟

ـ لأن الله هكذا أراد.

ـ وأنتَ ماذا أردتَ؟

ـ أردتُ سعادتك. لا شيء إلّا سعادتك.

قلت بحدّة: أنتَ سعادتي.

ـ مجد..، وتنهد بضيقٍ قبل أن يُكمل قائلًا: افهميني، ما كنتُ لأسعدكِ، إنني رجلٌ قصير العمر والله أعلم وأن أتركك خلفي حبيبة مجروحة كفيلة الأيام بمداواتها خير من أن أتركك أرملة لا يشفي الدهر قلبها ولو وضع بين يديها كلّ مفاتيح السعادة.

ـ أهكذا تبرر خسارتك إيايّ؟

ـ وماذا تريدينني أن أقول؟

ـ قُل أنّك لم تفعل شيئًا لإنقاذ حبّنا من الغرق ببركة الدّم هذه، قُل أنّني لم أكن يومًا بالشّيء الّذي يستحق منك المقاتلة من أجله. أنت حتى لم ترسل رجالًا لخطبتي أرسلتك خالتي فقط وما إن سمعتَ بالجواب حتى رحلتَ و..

قاطعني: نعم. أعترف بكل هذا، أوتدرين شيئًا! حتى خطبتي لك كانت خطأً وأحمد الله وأشكره أنَّ عمّي رفض، ليس لأنني لا أحبك ولكن لأن ارتباطي بك أو بأيّ امرأة أخرى سيكون ظلمًا لها، وأفضل أن تقولي عنّي ما تشائين على أن أظلمك، لن أسلبك حقك في الحياة لأنني مقبل على موت.

كان صادقًا في كل ما قاله، وإنني وإن اتهمته بالكذب والخداع وشككت بمشاعره تجاهي أمامه، فلم أكن في داخلي أشك مثقال ذرّة بصدق حبّه لي. وحقيقة لا أدري لماذا كنت أحدّثه بهذا الأسلوب وأوجه له تلك التّهم! ربما لأنّني كنتُ بحاجة لأسمع منه كلمة "أحبكِ" وما كان ليقولها لولا استفزازي له بتلك الأسئلة وإدخاله في ذاك الحوار العقيم الّذي لا فائدة منه، وقد وقع الفأس بالرأس وانقضى الأمر.

بعد صمتٍ طويل كنت أنظر به نحو حارس المقبرة دون أن أراه لا هو ولا تنكته ولا شايه، وكان هو ينظر إليَّ... سألته: لماذا رجعتَ؟

ـ لأطمئنَّ عليكِ.

ـ لماذا أنت في الرقة ولستَ مع رفاقك مرابط على الجبهات؟

ـ جئت في مهمّة وكنت أنتظر لأراك كي أغادر، أظنني غدًا سأذهب.

حقيقة استغربتُ إجابته على آخر سؤال لي فهو لا يحبّ الحديث عن حياته الثّانية ولا يعطي سائله إجابة شافية. تنهدتُ وقلت له:

ـ سأغادر سوريا الآن، متاعي في السيارة وهم بانتظاري.

سأل وقد بانت الدهشة على مُحيّاه:

ـ إلى أين؟

ـ تركيا.. ومنها إلى ألمانيا.

كان واضحًا من تعابير وجهه أنه صُدُمَ بالخبر، لكنّه تدارك الموقف سريعًا وقال: أسأل الله أن تصلي بخير وسلامة.

ـ عمّار سأظل إن أردت.

لم يُجبْ؛ تجاهل قولي الأخير كُليًّا ولا أشك أن قلبه كان يصرخ: ظلّي! ثمّ تململ في جلسته وأخرج من جيبه ورقتين لم يفارقنَّ جيبه. أمّا الأوّلى فكانت وصيته. والثّانية كانت بها ثلاثة أرقام هواتف مدّني بها قائلًا:

ـ الرقم الأول لأبي، ربما ستستطيعين الاتصال بهم هناك، ستُسعد والدتي بالحديث إليكِ فهي لا تنفك تسأل عنكِ. مددتُ يدي لآخذ الورقة فباغتني وأمسك بها...

شعرتُ بقلبي يرتجف، قرأتُ في عينيه كل الكلام الذي يتوق قلبي لسماعه منه، وكأنه شكّل باتحاد يدينا جسرًا عبرت منه كل الأحاسيس التي تكتمها نفوسنا، كلّ الأحاديث التي خبأناها لبعضنا البعض طوال العامين المنصرمين. وكلّ حزنه تسلل في حالة فوضى المشاعر التي كانت بها دواخلنا. فاقتحم قلبي وتكدّس فوق همّي واتحدا معًا فتولّدت من رُحم ذاك الألم دمعة مُكهربة، شقّت ذاك الازدحام وخرجتْ تركلُ خدّي وتلعنُ وتشتمُ هذه الحياة وهذه الحرب وهذا الحبّ، فأخبرت عمّار عن كل ما رأته هناك في ذاك القلب المُحطّم، فتأثر جدّاً وخرج صوته مبحوحًا مخنوقًا واغرورقت عيناه وهو يقول لي: سأفتقدكِ.

سقطتْ دمعتي الغضبى وكادتْ أن تسيل دموعه عندما استيقظنا مما نحن به على هاتفٍ هتف باسمي فأجفلنا:

ـ مجد!!

الفتنا معًا فإذ بأبي واقفًا على مقربة ينظر إلى يدينا التي لا تزال على حالها الأوّل. توقف الدم في عروقي.

نهضنا معًا. تقدّمتُ عمّار وأنا أُري الورقة لأبي وأبرر له قائلة: أبي لقد كنّا! لقد كان عمّار يعطيني رقم هاتف أهله في تركيا بناءً على طلبي. كان مارًّا من قرب المقبرة مصادفة ورآني فمرَّ ليسلّم عليَّ لا أكثر.

أشار أبي بيده لي إشارة معناها اصمتي، وسأل عمّار قائلًا: ما هذا الذي رأيته يا عمّار؟

قلتُ: أبي أرجوك لا تُسيء فهمنا.

قال عمّار: إنّها تكذب. كنتُ أمسك بيدها وأقول لها أنني سأفتقدها.

ـ وهل ترى أن هذا صائبًا؟ أيرضي الله ما فعلته، أيجوز في ديننا هذا؟

ـ لا!

ـ أيجوز في عاداتنا وتقاليدنا هذا؟ هل يرضى أباك وعشيرتك من خلفه ما تفعله؟.

ـ لا.. أعترف أنني أسأت التصرف وأرجو منك المعذرة!

ـ أبي أرجوك دعنا نذهب.

لم يجبني أبي. وأطرقَ مفكرًا لهنيهة، ثمّ وجهَ الكلام ل"عمّار" قائلًا: احترامًا للجيرة الّتي كانت بيننا وللخبز والملح سأعتبر أنني لم أر شيئًا هذه المرّة؛ ولكن إعلم أنني لا أسامح مرتين ولتعتبر هذا إنذارًا.

ـ شكرًا لك عمّي.

وجّه أبي الكلام لي قائلًا: فلنذهب!

تقدّم عمّار نحوه حتى وقف أمامه فمدَّ يده مصافحًا وهو يقول: عمّي آسف لتأخري في تقديم العزاء لك، عظّم الله أجرك وألهمك الصبر والسلوان.

تردد أبي، نظر إليَّ وكانت نظراتي كلّها توسل.

هيّا يا أبي... هيّا.

أمّا آن لنا أن نترك الأحقاد والضغائن والكراهية جانبًا ونتصالح؟ أما آنّ لنا أن نغفر ونطوي الصّفحة السّوداء هذه ونتصافح؟ ونعود بعد الشّتات أحبة! أمّا تعبنا! أمّا حان الوقت لنسترح، ثم لننهض ونبني بيوتنا المهدّمة، نبنيها كما كانت بسقفٍ واحد يفصل بينها حائط واحد، وشجرة تنبت في دارنا تظلل دارهم، نسقيها نحن فيتساقط ثمارها عندهم، والباب بجوار الباب، والمأتم واحد والعرس واحد؟

مدَّ أبي يده وصافحه قائلًا: سلّمك الله لأبويك وجزاك خيرًا.

لم أستغرب! فإنّ المصيبة الّتي حلّت بوالدي مؤخرًا حوّلته لإنسانٍ آخر، إنسان مسالم هادئ، منعزل، غارق طوال الوقت إمّا في التّأمل والتّفكير أو في الصّلاة وقراءة القرآن. لم يعد يُحبّ الخوض في المجادلات السياسيّة العقيمة ولا مجالسة أولئك الذي يعرفون كلمتين ويظنون أنفسهم يعرفون كل شيء ويفتحون أفواههم ويغلقون آذانهم عندما يتحدّثون مع شخص لا تتطابق أفكاره وأفكارهم. وبعض المصائب تكون كصفعة تُعيد المرء لوعيه وتجعله يُعيد حساباته من جديد. قبّلت كتف أبي وعينايّ تدمعان فربّت على كتفي قائلًا: أنذهب؟

- أجل.

حدّقتُ وعمّار ببعضنا وكِلانا خائف من أن تكون هذه اللحظات القليلة المتبقيّة هي آخر ما قد نمضيه من وقتٍ مع بعضنا، وهذه النّظرة هي آخر نظرة نتبادلها. فلا أظنني إن وصلتُ لتلك البلاد الأوربيّة سأعود إلى سوريا مجددًا حتى وإن عاد الأمن والأمان إليها وخصوصًا أنّ حمزة ممّن يبحثون على الدّوام عن الأفضل. فهل بعد ألمانيا سيعود مجددًا إلى هذه المحافظة النائية المنسيّة في سوريّا! أمّا عمّار فلا يظن أنه سيكون لديه مستقبل ليلقاني به.

قال وقد تصنّع الابتسامة: رافقتكِ السلامة.

ابتلعتُ غصّتي، استجمعتُ قِواي وقلتُ له: كُن بخير.

وكان لعيوننا حديثًا آخرًا مختلفًا تمامًا عن هذا الذي كنّا نحكيّه. مشيتُ وأبي بعدما ودّعتُ أمي وحبيبتيَّ والرجل الوحيد الذي عرفه قلبي، الرجل الذي لم يكن حبي الأول والأوحد فقط، وإنّما حبّي الجارف، المُتطرف الجامح. أنزلتُ النقاب على وجهي ومع كل خطوة كنت أخطوها كان يزداد الصّراع داخلي، وتنازعني روحي أكثر لألتفتْ لألقي عليه النظرة الأخيرة. لكنني كنت أضعف من أن أحتمل ثقلها، أضعف من أن أصدّق أنني على وشك مفارقة هذا الذي أحبّه حدّ الثّمالة فراقًا طويلًا وربما لا قدّر الله أبديًّا. وهكذا كان حالي حتى آخر خطوة وقد وصلنا باب المقبرة.

فتوقفتُ، وكُلّ ما بي التفت نحوه. وكان لا يزال واقفًا في مكانه واضعًا يداه في جيوبه يشيّعني بنظرات حزنٍ كتلك التي شيّعته بها قبل عامين في تلك الليلة الباردة. ذات الحدث تكرر... ذات الموقف والنظرة الحزينة والالتفاتة الأخيرة، غير أنّني اليوم لستُ المودِّعة وإنما المودَّعة، ولستُ الواقفة وإنّما الرّاحلة، الرّاحلة دون عناق. وقفتُ أنظر إليه... لم أبكِ، لم أبتسم، لم ألوّح له، فقط أنظر إليه وأسأل نفسي:

- هل عليَّ الانتظار عامين إضافيين لأراك مجددًا؟

فلمّا طال وقوفي وحالي هذا جاءني صوت والدي هامسًا وكأنّه يوقظني من النّوم: مَجد.

نظرتُ إليه ومن دون أي تفكير رميتُ بنفسي في حضنه وانهرتُ باكية. طوّقني بذراعيه واحتضنني بكلّ حنانٍ وأدمعتْ عيناه إشفاقًا عليَّ وقال: سامحيني يا بُنيّتي لقد ظلمتك، لقد ظلمتُكما.

فلم يزدني طلبه للعفو مني إلّا بكاءً.

لقد فات الأوان! وفُلكي التي كانت في طريقها إلى مرفأ عمّار قد غرقتْ وابتلعها محيط الكراهية بعدما قمتم بتغيير مسارها. فليسامحكم الله يا أبي .فليسامحكم الله!

في قرية من عشرة بيوت نائية متاخمة للحدود السوريّة التركيّة، في بيت المهرّب، التقينا بمسافرين ومعهم صديق حمزة الحميم وعائلته المكونة من زوجة وابنته الريم وابنه عيسى، وبعدما اكتملت المجموعة وكانت ما يقارب الثلاثون شخصًا وبعدما أجرى المهرّب اتصالاته، وشرح لنا التعليمات مشى ومشينا خلفه تباعًا لمدّة عشرون دقيقة بين الأراضي الزراعية وفي الوديان حتى صارت الحدود على مرأى عيوننا، اختبأنا خلف ساتر ترابي إلى أن مرّت الدوريّة وابتعد حرّاس الحدود وأعطاه الضابط الذي كان يتعامل معه الإشارة وهو بدوره أعطانا الإشارة فركض وركضنا خلفه إلّا أبي وأحمد وآخرون ممن جاءوا لتوديع

أحبتهم بقوا عند الساتر يدعون لنا. كنت أمسك بيد الريم بينما كانت أمها تحمل أخيها، ووالدها يحمل حقائبنا. قفزت إلى الخندق ولم يكن بذي عمقٍ، وذكريات كثيرة قفزت إلى ذهني وصارت الصور تمر من أمام عيوني وكأنها شريط سينمائي.

أمّي بوجهها الجميل جالسة على عتبة باب الدّار تُمشط لي شعري فتأتي خالتي أم عمّار تحمل صينية بها إبريق ماء ساخن وكاستي متة، وصحن يحتوي بزورات أو مكسرات، والحارة تعجُّ بالحياة، الأولاد يلعبون بالكرة والفتيات يلعبنَّ "فتحي يا وردة" وسط أجواء صاخبة وضجيج. ويقبل أبي حاملًا بيده أكياس كثيرة فنتسابق إليه نحملها عنه ونتحزّر ماذا قد جلب لنا معه "أقباقيب غوّار أم ملبّس؟".

وجدّتي رحمها الله وذاك الدق الأزرق على وجهها ويديها وقدميها فتبدو وكأنها لوحة، وأعمامي وعمّاتي والقرية وحقول القمح والشعير والقطن والبقرات وأشجار الزيتون وسهرات الريف الجميلة وجلسات "المولّية" والدفوف والنجوم تملأ السماء، وشهر رمضان والأعياد التي لم تعد لها أي نكهة الآن.

وأخوالي وحديقة بيتهم الكبيرة بها من كل أصناف الورود. والمدرسة والمعلّمات الأنيقات والمدير الأصلع

العصبي والمقاعد والطباشير وجدول الضرب المعقّد ولعبة المربّعات وعقوبة الوقوف عند سلّة المهملات.

والفرات أو كما نسميه "الفرا" والقوارب والمياه الصافية، والنزهات، والشواء، والسباحة.

والسّماء الصّافية والأسواق المُكتظة والناس المطمئنة والحياة الرائعة وطفولتي السعيدة. ثمّ جنازة أمّي والمأتم والمسؤولية، ومجيء الحرب فدمار البلاد، ثمّ دمار قلبي، ثمّ دمار الحارة ورحيل الأحبّة واحدًا تلو الآخر، ثم وداعي لعمّار ووجه عمّار الذي لا يغيب عن البال ووقفته تلك في المقبرة. والآن آخر صورة في الشّريط وهي صورتي في هذا الخندق ما بين سوريا وتركيا، ما بين الوطن والمنفى، وقد اكتشفت وأنا في هذا المكان وأنا على وشك مُهاجرة سوريا أنّني أحبّها كثيرًا وربما أكثر من أي شيء. فخرجتُ من الخندق جسدًا دون روح فلم ترضَ روحي أن تفارقها.

وبدأت تتآكلني الغربة منذ أول خطوة أخطوها على الأراضي التركيّة واشتقت لأبي. التفتُ خلفي لأتفقّده لكن الظلام كان دامسًا وعجزتُ أن أراه مما زادني غربة فوق غربتي. كيف سأتركه هناك لوحده هل أنا مجنونة؟ لم أكن أحتاج إلى أكثر من أن أطرح على نفسي هذا السؤال في تلك الحالة التي كنت بها لأقرر العودة إليه، وإلى سوريا.

تركتُ يد الفتاة التي ركضت نحو أمها ورجعتُ..

وكدّتُ أن أقفز إلى الخندق مجددًا لولا أن أمسك بي أبا الريم وسألني باستغراب:

ـ ماذا تفعلين؟ إلى أين أنتِ ذاهبه؟

ـ دعني أرجوك، أريد أبي، دعني أرجع إليه.

كان الناس آنذاك كلّهم قد خرجوا من الخندق وراحوا يركضون نحو الحقول وصاحَ المهرّب بنا غاضبًا: ماذا تفعلان ستعود "العقربة" بعد لحظات.. اركضا بسرعة.

جرّني الرجل من يدي وأنا أبكي وأصرخ "أبي...أبي" ولكن لم يعد هناك في صباحاتي وأماسيَّ أبي... إنه الفراق، ألا ليت الفراق كان آدميًا لأحرقه، لأقتله، لأمزقه! ومشينا بعدما تجاوزنا مرحلة الخطر مسافة 1كيلو متر حتى وصلنا حافلات كانت بانتظارنا في قرية تركيّة. أقمنا عند شقيقة أبي الريم، وكانت تقطن وزوجها بيتًا كبيرًا في أنطاليا، حتى يحين موعد سفرنا الذي تعسّر بعض الشيء بسبب الأحوال الجويّة من جهة ولاكتمال عدد المسافرين من جهة أخرى.

وكنت قد حزنت لفراق والدي حزنًا عظيمًا ودخلتُ في حالة من الاكتئاب أقلقَتْ أهل البيت ورفقاء سفري عليَّ، فكانوا يحاولون كل جهدهم لإخراجي مما أنا به ولإدخال بعض السرور إلى قلبي؛ ولكن ما من شيء

كان يقدر على هذا سوى تلك الدقائق التي كنتُ أحدّثه بها وكان قد قرر الاستقرار في الريف وبناء دار في أرضه والتحوّل للزراعة، وإن كان قد كره هذا في شبابه وهرب إلى المدينة خوفًا من أن ينتهي به الحال مزارعًا بثيابٍ متسخة ووجه أسمر وذقن رثّة شائبة. عاد إلى الريف كما خرج منه قبل ربع قرن وحده وليس في يده إلّا حقيبة بها بعض الملابس وقد فقد كلّ شيء كسبه في رحلة حياته زوجته، وولده الذي لم يهنأ به وبناته وبيته ووظيفته وسيارته وأكثر أصحابه وجيرانه. كان الله في عونه فإن المساء سيأتيه كل يومٍ بكل فواجعه ويفتح له جراحاته وليس له من أنيس يخفف عنه. وكذلك كانت تسعد قلبي تلك الدقائق التي أحدّث بها خالتي أم عمار وهنادي وكانت قد تعذّرت عليَّ زيارتهم بسبب بُعد مكان إقامتهم عن أنطاليا.

لم تكن هنادي هي ذاتها البنت التي عرفتها في سوريا تلك الضحوكة المرحة التي تنشر السرور أينّما حلّت! ولكن فتاة أخرى، هادئة، مهمومة، لم تعد تعرف شفاهها الابتسام، وقد خُطبت لابن عمٍ لها أحبته وأحبها وكانا على وشك الزواج قبل أن يتم إيقافه عند حاجز تابع للنظام وهو آتٍ من جامعته من حماة، فتمّ تمزيق بطاقته الجامعيّة وأوراق تأجيل خدمة العلم وإلحاقه بالجيش. وبعد ثلاثة أشهر استطاع مع بعض رفاقه الانشقاق وهرب إلى لبنان حاملًا دمه في كفه.

والآن هو هناك وهي هنا... كلٌ منها عالق في بلد وبينهما بلد لا طريق سالك بها. والحل الوحيد أن يعبر أحدهم البحر المتوسط ما بين لبنان وتركيا بطريقة غير شرعية " تهريب" ولكن هذا مكلفًا جدا ولا يستطيع الفقراء تحمل تكلفته.

فكّر أبيها أن يُلغي الخطوبة ويزوجها لرجل آخر؛ ولكنه لا يستطيع فعل ذاك والخروج عن عرف العشيرة! حيث أنّه في تقاليدنا لا تستطيع البنت الزواج من أحدٍ إن كان أحد أولاد عمومتها راغبًا بها، بل ويحق لابن العم أن يلغي زفاف ابنة عمه وإن كانت في الفستان الأبيض تودع أهلها.

اخبرتني هنادي في حديث لنا أن عمّار يسأل عنّي وإن كنت قد سافرتُ أم لا؟ طلبت منها أن تعطيني رقم هاتفه، فتعذرت قائلة أنّه في كل مرّة يتصل بهم من رقمٍ مختلف وليس لديه رقم ثابت.

أخبرتها أن تعطيه رقم هاتفي ليتصل بي، وفعلتْ، وأخذ الرقم لكنه لم يتصل. مرّت أيام كثيرة... أسبوع فثلاثة أسابيع، فخمسة، وأصبحتُ أعيش على أملٍ، وكلّما رنَّ هاتفي قفزتُ إليه وكلّي رجاء أن يكون هو المتصل؛ لكنّه لم يتصل! حتى فقدتُ الأمل تمامًا، وخصوصًا بعدما طلبت من هنادي أن تقول له على لساني عندما يكلمهم...

" الروح جارت علينا في محبتكم
وطالما أشقت الأرواح أبدانا

الحبّ أرخص من أقدارنا بكم

لولا هوانا بنا ما كان أغلانا "

فلم يردني منه جوابًا يجفف عَبرة روحي، لم يتفوه بكلمة وقال أنه مشغول وقطع الاتصال، قالت هنادي.

أزعجني ذاك كثيرًا. ألا يرد عليَّ عمّار، ولا بكلمة واحدة، أبخُلَ عليَّ في سلام أعزي النفس به؟!

ولمّا لم تخرجه من صمته أبيات "الجواهري" استعنت ب"ابن زيدون" وأرسلت له رسالة عتاب ثانية:

" أرخصتني من بعد ما أغليتني
وحططتني ولطالما أعليتني

هلّا وقد أعلقتني شرك الهوى

عللتني بالوصل أو سليتني "

وجاءني جوابه قائلًا " أيا جارتا لو تشعرين بحالي؟ "

وأجاب هنادي عندما سألته لماذا يفعل بي هذا؟

لماذا يُصعّب الأمور عليَّ ويأبى أن يتصل بي فنقول لبعضنا ما نريد دون وساطة رسول؟

ـ لا أريد أن أدخل وأُدخلها معي في غمد المعاصي، بل أريد أن نقابل ربنا بحبٍ عذريٍ بريء، فنحن كلّما التقينا أو تحادثنا تُسكتُ قلوبنا، عقولنا، وإن سكتَ عقل المرء فسد عمله. وهكذا قرر الانسحاب من حياتي، وقطع كل سبل التواصل بيننا، وهجري خشية أن يوصلنا هذا الحب إلى ما لا يرضاه الله. وكان عزائي لنفسي أنني أشعر بحاله، وكلّي يقينٌ أن به مثل ما بي. رنَّ هاتفي وكنت أوظب حقيبتي، وأتخيّل القارب المطاطي الذي سأكون على متنه غدًا -وقد تقرر موعد السفر- والأمواج العاتية التي ستبتلعنا. إنّها لعنة الموت تطارد كل سوري، ضاقت بنا الدنيا وامتلأت الجنان منّا. لم أشك أن المتصل أحدًا سوى "حمزة" ولم أكن قادرة في ذاك المزاج المضطرب على محادثته، فلم أجب. رنَّ الهاتف مرّة ثانية تزامنًا مع دخول الريم ذات الأعوام العشرة إلى غرفتي وقد قالت ببراءة الأطفال وكأنها ظنّت أنني لا أسمعه:

ـ خالتي هاتفك يرن.

ثمّ اقتربت من الطّاولة الّتي كان فوقها وألقتْ على الشاشة نظرة وهتفت بسعادة طفل يُلقي القبض على عاشقين: خالتي إنه عمّي حمزة!

كما توقعتْ، تنهدّتُ وقلت مخيبة آمالها:

ـ ضعي الهاتف على حالة الصامت عزيزتي.

ففعلتْ، في حين أطلّت أمها من الباب وقالت:

ـ مجد، لدى جيراننا حفلة بمناسبة خطوبة ابنتهم جاءت المرأة ودعتنا، هلمّي معنا لنذهب إليهم سنحظى بقليل من المرح ونرفّه قليلًا عن نفوسنا في آخر ليلة لنا في هذه البلاد.

حفلة خطوبة! فرقص ودبك وموسيقى وغناء وفرح وضحك وضجيج، يا إلهي أين أنا من هذه الأجواء؟

قلتُ معتذرة: لا أظن أنني سأستطيع الانضمام إليكنَّ، أريد تجهيز نفسي والاستحمام والاتصال بزوجي والصلاة. أقبلتْ المرأة وجلستْ بقربي على السرير وأمسكتْ بيديَّ وهي تقول لي مواسية:

ـ حبيبتي أعرف أن جرحك جديد لم يلتئم بعد، ولكننا كُلنا فقدنا أبًا وأخًا وأختًا وابنًا وصديقًا وقريبًا، لن تجدي سوريًّا واحدًا لم يختطف الموت منه عزيزًا. وكلّنا على هذا الطريق وإن الموت حق والحزن لثلاثة أيام، فالبكاء واعتزال الناس ولبس الأسود لا يُرجِعُ أحدًا والله لا يرضى بهذا. ولم تقم من مكانها حتى أقنعتني بالذهاب رفقتهنَّ وقد اتفقنا أن نجلس نصف ساعة ونعود غير أن الوقت مرَّ سريعًا وكان الحفل جميلًا جدّاً وأمضينا وقتًا ممتعًا حتى أننا لم ندرِ كيف انتصف الليل بتلك السرعة. لم أتذكر هاتفي حتى هممت للنوم فصُدِمتُ إثر أول نظرة ألقيها على الشاشة

بعدد المكالمات الفائتة... مكالمة واحدة من حمزة وسبع وعشرون مكالمة من رقمٍ غريب.

عمّار إنه عمّار، قلبي متأكد أنه هو. تراه بخير! يا إلهي تلطف بنا يا إله السماوات رحمتك!

نظرتُ إلى مواقيت المكالمات فكانت كلها ما بين التاسعه والتاسعة والنصف مساءً.

لم أفكّر كثيرًا؛ بل لم يبق لدي عقل يستوعب شيئًا وقد نال منه الخوف وغزته الأفكار السيئة، اتصلت بالرقم الغريب وأنا أرتجف. فُتِحَ الخط، قلتُ بارتباكٍ: ألو.. مرحبًا. أجاب محدّثي من الطرف الإخر من غير أن يردّ السلام: أأنتِ مجد؟

لا؛ لم يكن عمّار، كان صوتًا غير مألوف!

حمّدتُ الله في سرّي وتبدد خوفي لتحلَّ محلّه الحيرة:

ـ أجل؛ أنا مجد.. مَن تكون أنت؟

لم يُجبّني بل راح يسألني بغضبٍ حتى خُلتُه سيخرج من الهاتف ويقوم بصفعي وتكسير الأثاث من حولي، وكان قد تبيّن لي بعدما بدأ بالكلام من لهجته أنه إدلبي ولستُ أدري كيف لشاب إدلبي أن يعرفني وليس لنا أي معارف ولا أقارب هناك؟

ـ أين كنتِ لقد هلكتُ هاتفك اتصالات، وكان يرن.. لِمَ لم تُجيبي؟ لا أدري لماذا تحملون هواتفًا إن لم تكونوا تجيبون عليها ولا تنفعكم وقت الضرورة؟

ـ هيه.. أنتَ لماذا تحدّثني هكذا؟ هاتفي وأنا حرّة أُجيب عليه أو لا فما شأنك أنت؟ ومَن تكون؟ ومن أين تعرفني؟

ـ اسمعي يا ابنة الناس لا شأن لي بكِ وأنتِ لا تعرفينني ولا أنا أعرفك ولا أعرف حتى مَن تكونين بالنسبة ل"عمّار الرقاوي" كلّ ما أعرفه أنه أراد التحدّث إليكِ ولم يتوقف عن الهذيان باسمك، وكلّما قلت له أنك لا تجيبين قال لي أعد الاتصال.

عمّار... كان مجرد ذكر الاسم كافٍ ليزلزلني.

تغيّرت نبرة صوتي تمامًا وامتزجت بها اللهفة والحيرة بالخوف والقلق وأنا أسأل الشاب بصوتٍ مرتجف يُنذر بعاصفة بكاء قادمة:

ـ عمّار؛ أين هو؟ أعطه الهاتف لأكلّمه أتوسلك.

أدرك الشّاب أنني لم أكن على دراية بشيء وتأثر بحالي فقال: اهدأي أختاه.

وكانت قد تغيّرت نبرة صوته هو الآخر وبدت هادئة على عكس العصبيّة التي كان عليها قبل هنيهة.

التزمَ الصمت حائرًا، ماذا سيقول لي بينما أنا لم أتوقف عن التوسل إليه ليعطي الهاتف لعمّار.

ثمّ قال: أختي أرجوكِ اهدأي قليلًا واسمعيني، البقاء لله، كان فقيدكم من خيرة الرجال، وإنه لم يمت بل استشهد والشّهداء أحياء عند ربّهم يرزقون.

لم أقدر على قول شيء، لم أستوعب شيئًا من قول هذا الغريب. فقيدكم؟ البقاء لله؟ شهداء؟ يمت؟.

قال الشاب يشرح لي ما صار وسط ذهولي الذي أخرسني: انفجر أحد الألغام في مكانٍ كان به...فأتلف ساقيه وأُصيب بجروحٍ بالغة، تمّ نقله فورًا إلى تركيّا، رافقته حتى الحدود وكان قد أدرك أن ساعته قد حانت فطلب منّي الاتصال بوالديه، فتحدّث إليهما كاتمًا ألمه وطلب أن يسامحاه قائلًا لهما أنه مُقدِمٌ على معركة كبيرة فلمّا اشتد عليه الألم قطع الاتصال بعد أن قال لهما أن القائد يناديه. ثم استجمع قِواه مجددًا وطلب منّي الاتصال بكِ، فحاولتُ جهدي لأحقق له رغبته الأخيرة ولكن لم يكن إليك من سبيل، وشاء الله أن تُقبض روحه قبل دخولنا إلى تركيا بدقائق.

قطعتُ الاتصال، وكانت الأرض تدور من حولي وتهتز من تحتي حتى وقعتُ بعدما اصطدم جسدي بحافّة السرير. استنتدت إلى بقايا قوّة كانت بي وبقايا أملٍ تمسك به قلبي واتصلت بأهله عسى ولعلّ أن يقولوا

لي قولًا غير قول هذا الكذّاب. أجابتْ هنادي وقالت بصوتٍ متقطّع: عمّار يا مجد.. عمّار!

النّهاية..

مات عمّار، أخذه الموت كلّه! لم يرحم ضعفي ويبق لي شيئًا منه يُعينني على مرارة الحياة، ويبث في صدري شتى أنواع السعادة. لو ترك لي عينيه، أو إحداهما لتبتسم لي فتنقشع سحب الحزن عن قلبي، وتزول الظّلمات عنه بإشراقتها! لو ترك لي يديّه أو إحداهما، لتنتشلني من مستنقعات الفقد وتأخذ بيدي إلى بر لقاءٍ يجمعني به! لو ترك لي شامتي رقبته لأستدلَ بهما على جهة الحُبّ إذا ما تهت في بيداء الكراهية وابتلعتني رمال الحقد! لو ترك لي بعضًا من قلبه يشعُّ كنجمٍ في أفق أحزاني!

عمّار.. آه يا عمّار! مَن بعدك أنتظر! أتوسل الصدف لتجمعني بمَن؟! عن أخبار مَن سأسأل "هنادي" كلّ يومٍ، ولمن

سأحمّلها الرّسائل والعتاب؟ وأبتهل للّه ليحمي مَن؟

آه يا حبيبي! أترحل دون وداع يليق بكلّ العذاب الذي تجرعناه؟! أوترحل كلّك يا وجعي وأبقى أنا كلّي دونك هنا؟

"يا حفّارين الگبر خلّم للگبر باب خلم للگبر باب

وبيني وبين الولف أشواگ وعتاب أشواگ وعتاب

يمااااه يا يمّا يبچي وبچاني معزوز عيني رحل يبچي وبچاني، ومنهم لفاني خبر يمااه يا يمّا وريتو ما جاني ريتو ما جاني.. ويمّا تعالي يمّا تعالي وأبچي گبال الدار يمّا تعالي

وفراگ الغوالي فراگ الغوالي يدعي الكبد غربال فراگ الغوالي"

مات عمّار، وكذلك الشّيء الذي كان ينبض داخل قفصي الصّدري! لماذا؟ حقًا لماذا؟

رحل الجميع حتى أنا، وبقيت "لماذا" متربعة وسط ذهني وتحيط بها العشرات من إشارات الإستفهام. لماذا كلّ هذه

المعاناة، وهذا القدر من الألم؟ ما الذّنب الذي ارتكبتهُ ليتم وأد قلبي وموارته العذاب إلى أن يرثه اللّه وما به من مقابر وموتى؟ كيف سأعيش بقيّة عمري، كيف سأحيا بهاته الروح المعطوبة دونهم؟ هم الذين كانوا نبض قلبي وبهجته، كان يكفيني عِناق من وتين، فنجان قهوة تعدّه لي حنين وتأتيني به وأنا في فِراشي مستيقظة لتوّي في صباح فيروزي جميل، نظرة من عيني عمّار، قعدة في مطبخ خالتي أم عمّار نحفر الكوسا أو نحشو الكُبّة ونتحدّث عن الجارات، ابتسامة من أبي وأنا أناوله كوب الشّاي وهو جالس تحت شجرة الليمون يقرأ كتابًا، شعوري بأنّ روحًا تسكن في أحشائي، أشياء بسيطة كهذه كانت كفيلة لجعلي أسعد فتاة في الدنيا.

ولكن الآن كلّ شيء راح، كلّهم راحوا. وبقيت والحزن واليأس ثالثنا في هذه الدنيا الكبيرة الفارغة إلّا من الوجع المعشعش في أعماق أعماقي. مَن يُرجع النّظر لعينيّ قلبي التي ابيضّت من كثر ما بكتهم؟ مَن يُصلّح حياتي التي أفسدتها الحرب؟

مَن يُرجعني لأيامٍ كنتُ عائمة بها في الحبّ لا غارقة في غياهيب الحزن وليست أمامي حتى قشّة لأتمسك بها؟

ماذا فعلتُ؟ بماذا أذنبتُ ليكون هذا عقابي؟ وهو ما كان ذنبه لتتمزّق ساقاه ويرحل بذاك الجسد المشوّه، في عِزِّ شبابه؟ هو حتى لم يُتم الخامسة والعشرين، هو لم يرَ من الدّنيا شيئًا سوى بعض الكتب وحرب! هو الّذي كان فرحة أبويه الوحيدة وذخرهما لكِبرِهما. أعدلٌ أن تحوّل تلك الحرب اللعينة هاته الفرحة الوحيدة لعذابٍ لقلبيهما سيبقيان به يعانيان ماداما يتنفّسان؟ ما ذنبه؟ ما ذنبهما؟ ما ذنب حبيبتيَّ هنَّ حتى لم يبلغنَ العشرين، فلا تزال صغيرتي الخجولة ابنة ستة عشر عام، والعروسة السعيدة كانت قد ودّعت عامها السابع عشر لتوّها. كانتا نائمتين بأمان اللّه، هاته تحلم بالفستان الّذي ستلبسه في زفاف حنين، وتلك كانت تحلم بخطيبها، فهل تُراها أحلامهنَّ هددت أمن الإنسانية واستقرارها فتم قصفهنَّ من حيث لا يدرينّ لتُقطّع أوصالهنَّ وتتمزّق أجسادهنَّ ليُجمع مَا تبقّى منهنَّ في أكياس ويوضعنُّ

في قبرٍ واحد ولم يكن حتى بالقبر بل مجرد حفرة على شكل قبر، فيحسبها النّاظر إليها قبرٌ لطفلٍ حديث الولادة، لا لشابّتين اثنتين. وأولئك الأجنّة ما ذنبهم ليموتوا في أرحامنا إثر تلك الصدمات التي نعيشها جراء القصف والانفجارات وحالات الفقدان الّتي نعيشها والموت الذي نراه محلّق كل يوم في سمائنا ممتطيًا طائرات حربيّة يزلزلنا ذعرًا وخوفًا، و.، وما أكثرها مسببات الصدمات في ديارنا! لماذا؟

لماذا لا نعيش حياة طبيعيّة كالّتي يعيشها الذين زادوا طين بلادنا بلّة، ونارها وقودًا وحطبًا؟ لماذا هم في النّعيم، في القصور، عامرة موائدهم وسط ذويهم في العز والرّفاهية والسيارات الفخمة والخدم والحشم هانئين في الحياة الرّغيدة، ونحن في الجحيم في المخيّمات والكامبات نيّام تحت الجسور وعلى الأرصفة، هاربين من الموت على قوارب الموت، تحت الأنقاض، في المشافي يحاول الأطباء ترميمنا ولصق أطرافنا المخلوعة بأجسادنا، جوعى، عُراة في الذل والمهانة وذوينا.. مَن لم يسكن القبور منهم سكن المنافي أو مفقود لا ندري ما فعلت به الدّنيا؟!

لماذا نحن الآن مشردين تائهين في شتى أصقاع الأرض، لا مستقبل لنا، ولا ندري ما مصيرنا ونمسي في ديار ولا ندري إن كُنا سنصبح بها، ولسنا في بيوتنا في مدارسنا وجامعاتنا ووظائفنا نربّي أولادنا، نزرع حقولنا، نبني مساجدنا، ومشافينا ونُعبّد طرقاتنا ونُطّور بلادنا وسط أهلنا وأحبابنا، نعيش آمنين بسلام في بلد السّلام؟ لماذا؟ حقًا لماذا؟!

تمَّتْ بعونه تعالى..
لبنان/ بيروت عام 2017

أرواح معطوبة..

من بلاد يأتيها الموت من كل مكان، ويتسابق على اغتصابها كل رعاع الأرض .. من بلاد لا تكاد تحصي أرواحها الفارة نحو السماء ونحو الحدود ونحو اليأس .. ومن بلاد لم تعد تعرف الحب ولا الراحة ولا زقزقة العصافير وحفيف الأشجار ورائحة الياسمين .. من سوريا بلد المليون قابيل والمليون جالوت والمليون خيمة .. من بلد أكلها العفن حتى النخاع ولم يترك حكامها أو محكوموها طريقا إلى الله أو الحب أو الصفح أو التسامح .. من هناك، ومن اللاهناك .. حيث بدأ التاريخ وانتهى، وحيث خطا آدم الأول أولى خطواته، وحيث ارتكب أكبر خطاياه .. من سوريا بلد الحزن المقيم واليتم المقدس، تقذفنا الروائية الشابة "مجدولين يوسف" بقبس من "أرواح معطوبة"، وكأنها تنثر فوق رؤوسنا المنكسة بالهزيمة رماد من رحل ومن

عجز عن الرحيل في بلد استبدلت كل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

في سبع وخمسين طلقة من القطع المتوسط، تختصر مجدولين يوسف معاناة شعب انقسم ذات خيبة على تاريخه ورائحة ليمونه وظلال جدرانه العتيقة، وخرج يبحث عن الموت في كل شارع وحديقة وثكنة عسكرية. وبدلا من العودة بشارة النصر، عاد مواطنوه أجمعين بأجساد ممزقة و"أرواح معطوبة" ليمارسوا ما تبقى لهم من فناء في هم مقيم وفراغ موحش، في شبه وطن لم يعد له ظل فوق خارطة كان منها القلب والخاصرة.

في رواية "أرواح معطوبة" تفشل مجد في إقناع عمار بالعدول عن قرار اتخذه ذات حميه بالانتماء إلى الجيش الحر، كما تفشل في إقناع أبيها بأن عمار ليس إرهابيا لمجرد أنه ينتمي لثوار قرروا أن يعيدوا ما اغتصبه الأسد من أرض وضياع ليوزعها على طغمته الفاسدة. ورغم يأسها من إصلاح ما أفسد الآثمون في الداخل والخارج، تقسم مجد أنها لن تكون

لغير ابن خالتها شاء من شاء وأبى من أبى، حتى وإن اضطرت إلى خلع برقع الحياء وإلقائه على قارعة الطريق، والهروب مع من تهوى إلى حيث ينبت الأمل. لكن عمار الذي طالت لحيته أكثر مما ينبغي يرفض عرضها المغري، ويغادرها دون وداع ليلحق بركب الثوار. كان الشاب يمتلك من التقوى ما يحميه من وسوسات امرأة كانت بالنسبة له الوطن. وحين يعود من الجبهة تسأله مجد إن كانت يداه تقطر دما، فيهرب من بؤبؤيها ببعض المداعبات الساذجة.

ويرفض أبو مجد أن يزوج ابنته لذلك "الفاشل" الذي قرر ترك الدراسة ليقاتل مع المأجورين الذين لا يريدون خيرا للبلاد ولا رغدا للعباد. ويغادر عمار بعد أن يوصي رفيقة حزنه أن تتزوج من يرضاه أبوها لأنه يظن كل الظن أن لن يعود. لكنه رغم ذلك يعود، ليعلن ورفاقه الرقة أول منطقة محررة من قيد الظلم، فيرد النظام بالبراميل الحارقة، ليتحول بيت مجد إلى ركام، وتحلق أختاها من تحت الأنقاض نحو السماء دون وداع يليق. ولا يتبقى من سلالة أبيها غيرها، فتقتسم رغيف الحزن

مع أب يهرب إلى أطلال بيته كلما خرج للصلاة ليتمسح بما تبقى من خراب هناك. ومع أخبار مؤكدة عن إصابة معشوقها ورحيله إلى تركيا للعلاج، ترضخ الفتاة لإملاءات أبيها، وتتزوج من حمزة ابن الحسب والأصول. لكنها لا تستطيع أن تنتزع جسدها من أحضان عمار عند أول لقاء يجمعهما بعد الزواج، ويدفعها عمار بما أوتي من ضعف حتى يستسلم أخيرا لدقات قلبه.

لكن حمزة هو الآخر لا يسلم من الوشاية، فيضطر إلى الهروب إلى أوروبا تحت جنح الظلام طالبا من زوجته أن تلحق به بأسرع ما تستطيع. وبالفعل، تغادر الفتاة رغما عنها أبا لم يعد له في هذا العالم ما يستحق المعاناة، لتقيم على الحدود التركية ما شاء لها الحزن، وهناك يأتيها الخبر الصادم بموت عمار، فلا تستطيع أن تحتمل، وتسقط في هذيانها محموم تسأل القدر إن كانت تستحق كل هذه المعاناة وكل هذا الألم. وتنتهي القصة عند هذا الحد، لتقف بها عند حدود الحدود .. فلا تحدثنا مجدولين عن لقاء مجد بحمزة أو عن عودتها إلى أبيها. وكأنها اختارت

لبطلتها أن تنتهي عند هامش الحياة كما بدأت على هامش الوطن، لتضعنا جميعا أمام فوهة المأساة لننظر ماذا نحن فاعلون، وتحرك في أرواحنا المعطوبة أي أثر لحياة بعد أن أكل الموت على موائدها وشرب. كرغيف محروق، تضع مجدولين قصة بطلتها المنكوبة على موائد عقولنا الخاوية لتخاطب فينا أي أثر من ضمير أو أثارة من وعي. ومثل ورقة ذابلة في شجرة يابسة عند حدود منسية، تنتظر مجد ككل السوريات البائسات موسم السقوط في مخيم لم يعد يتسع لأي حلم من أي نوع. ويبقى العالم شاهدا صامتا على جرائم ترتكب من كل نوع بحق شعب لم يطلب سوى الحرية والعيش والكرامة.

عبد الرازق أحمد الشاعر

Shaer129@me.com

أرواح معطوبة..

لـ: مجدولين يوسف

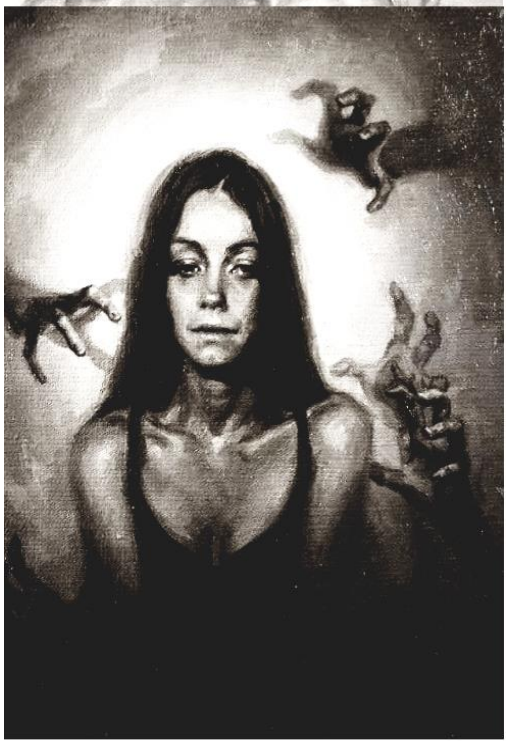

وحدّه الحُبّ قادر على ثقب جدار الحرب في نفوسنا، وفتح طاقة وسط أدخنة البلاد، وتنفس هواء المروج النّديّة. وحدّه الحُبّ قادر على انتشالنا من سوداوية أيامنا، والتّحليق بأرواحنا المعطوبة إلى عوالم السّلام والنّور.

مجدولين صالح يوسف

ابنة آذار الشّقية، بُشِرَ بي أبي في ربيع عام ١٩٩٣..
من درة الفرات وجارته الطّيبة السّمراء، الرّقة السّوريّة، قُبلتُ في الجامعة ودرستُ علم الاجتماع لعامٍ واحدٍ قبل أن تحول الحرب دون إتمامي تعليمي.